جبة الدرويش

شعر وقصص

أعمال لم تكتمل

للشاعر طه الطاهر

لوحة الغلاف
للفنان كاظم الخليفة

جبة الدرويش

اعمال لم تكتمل

للشاعرطه الطاهر

اهداء

الى .....امي حليمة

يا كوسري والهوى لَهّاب
يطراتي والماي خنياب
يا موقدي والبرد بالباب

مقدمة ×

نحن هنا في مد وجزر دائم سواء فيما يخص الكتابة أو القراءة حتى،.. لو عرفتم مقدار ما نحن فيه من بلادة لكثرة مصادر الرعب.. ولإنشغالنا... بما لم يخطر على بالنا يوماً، أن هذا سيكون همنا! بالرغم من ذلك فإني أكتب أو أقرأ وفجأة أنقطع بسبب الإحساس بلا جدوى ذلك .. لكن التعود هو الذي يرجعني.

وإني إنما أكتب فمن حاجتي للتحدث معكم والثرثرة... التي أفتقدها... ومثلي مثل الكردي الذي ستلتقونه في الصفحات المقبلة...
كنت اطمح في القصص الاربعة (الحافة ، ملا يوسف الخالدي، تمثال في كاني ماران ، والوحش كراز) وان تعلموا ، وانتم بعيدون ، ان هناك من يستطيع التحدث باحاديث عراقية ، بسوالف خالية من الزغل . فتمثال في كاني ماران هي وفاء للعراقيين الصادقين ، والحافة نالت اعجابا خاصا من قراء ممتازين ومثقفين ، كذلك ملا يوسف الخالدي والاخريات، اما يوم مشهود فانا احبها بالذات.

عندما فرغت من تمثال «حبشان» كان هماً ليس كبيراً قد أنزاح عن صدري رغماً من تواضعه الشديد ورغم اني لا أدعي بصناعة تماثيل بارعه لبارعين إلا انها تماثيلي الخاصه.
ثمة من ينتطرني لتماثيل اخرى رغم الصعوبه والافكار الكثيره المتناثره.
فرموز مثل «فدعه« و «رياض البكري» خصوصاً رياض فأني بحاجه للمساعده.
وآخر هو «ملا يوسف الخالدي» فقد ضاعت خرائطه وليس هناك أي أثر لمن يحدثني عنه إلا الذكريات القليله لطفل قليل.

اخيراً وجدت بعضا من أوراق «مسعود» والجزء الذي لم اعثر عليه لا يتعدى ورقتين ربما لا أكثر ولأنني في عجاله فلم اطيل البحث والسبب الاهم ان مسعود لست أنا الذي سيصنع تمثاله، ولكني حاولت وبجلسة لاهثة وبوريقات قليلة أن ألعب بالطين. فمسعود ليس بذمه شخص مثلي بل بذمة اخرين مختصين سيغدون السير على الاقدام يوما استقصاءا وبحثا وتحليلا وكتابة لكن باجواء اكثر صفاء ينتهي ماوجدته بعبارة «انه الحد الفاصل» وقد انهيت الحديث بسطور لاشك انها ركيكه هذا ما استطعت عمله فمعذره، انها خطوط عرضه لاحاسيس بدأت منذ زمن بعيد ظاناً انها ستكون قصيده عدا انها تغيرت الى هذا الشكل الذي سترونه، والله من وراء القصد.

واني استحق لهذا الجهد المتواضع تحية منكم لوعرفتم مقدار ما نحن فيه بلادة تامة لكثرة مصادر الرعب الذي نعيشه ، فهناك قصة بدات بها متحمسا وتوقفت عنها بسبب بسيط هو انها تحتاج مني لزيارة منطقة في علاوي الحلة ، هل تصدقون اني اتثاقل من هذا المشوار البسيط جداً ، وهذا بسبب انعدام الجو الثقافي وخلوه من الطرافة والصدق والمحبة .

صديقكم
طه الطاهر

*

هذه مقتطفات من بعض رسا ئل الشاعر لاصدقائه في لندن.

مقدمة

صانع تماثيل الخلود

كريم النجار

تجعل مني مهابة الكتابة عن الشاعر والإنسان المرهف حد الجنون طه الطاهر، بمثابة المهرج بعد إنفضاض الحفل، فلا هو قادر على تجميع الجمهور مرة أخرى، وغير قادر على أداء حركاته البهلوانية بعد الإجهاد وتقديم كل ما لديه.

لا شك أن المغامرة بالكتابة عن أديب وتقييم نتاجه وسيرته بعد رحيله الجسدي عن عالمنا هذا، تواجه من يتصدى لها صعوبات ومهام جليلة في البحث والتقصي والإطلاع على كل ما خلفه من كتابات ومواقف وما كتب عنه.
وتكون المهمة في غاية الصعوبة إذا علمنا أن هذا الأديب كان إشكالياً كبيرا في حياته، متصوفاً وزاهداً بكل شئ يخص نشر نتاجه عبر كتاب أو مجلة أو صحيفة ما، أو حتى إطلاع أصدقائه المقربين عليه، نتيجة خيبات متتالية هزت كيانه، منها ذاتية وسياسية، وموقف منه تجاه إرتداد الحال السياسي والثقافي وعدم ايمانه بكل مؤسسات النشر ودور الثقافة في البلد الذي لم يغادره بتاتاً والتي تحولت إلى مؤسسات رهيبة للتسطيح والتجهيل وتمجيد الطاغية، بل حتى لم يقرب أبداً من مهرجانات أوتجمعات أو مقاهي الشعراء والكتاب وأنديتهم الرسمية.

كان يئنس لحلقة صغيرة من الأصدقاء يحملون همّ السياسة والثقافة ويتحدثون بكل الأشياء وشتى المواضيع حد الخصام.. لكن رغم أونسه هذا ترى أحياناً.. خيوط الأسى تؤطر جبهته فيعتزل إلى نفسه لائذا بأحزانه المتراكمة.. حالماً بالغد الذي لم يأتي

وبالاصدقاء الذين تناثروا بين بقاع الأرض دون خبر أو أمل بالرجوع.

ترجع علاقتي حد الانصهار بالطاهر منذ منتصف ثمانينات القرن الماضي، حيث كنا رفاق الخيبة والقلق اليومي والشعر، وضمن حلقة ضيقة من الأصدقاء الذين يتشابهون بالأفكار ويتخاصمون بالآراء.. كلما كنت أمعن النظر بخياله الخصب، واحيانا بمحاولاته للأنزواء وإبداء التعليقات اللاذعة المقتضبة على بعض المواقف التي تصدر عن هذا الصديق أو ذاك.. أكتشف فيه الروح الإبداعية الحية وإبتكار المواقف التي لا يقدر على مجاراتها أحد ما. فكان مجلسه عامرا بالشعر والقصص والفن، إضافة إلى صخب السياسة التي أكلت من أعمارنا وهمومنا الشئ الكثير.

منذ شب على طور المراهقة أوائل الستينات تفتح وعيه السياسي متأثرا بأخيه الأكبر ربيب المثقفين ومربيه الشيوعي ״يوسف الطاهر״، خياط حي الوشاش والنزيل الدائم في السجون منذ الحكم الملكي وحتى بعد العهد الجمهوري، والذي كان دكانه مثابة مكان يلتقي فيه السياسي ورجل الدين والأديب والمثقف.
في محل أخيه هذا كان يراقب المتحدثين من جميع مشاربهم، ويحفظ الكثير من قصصهم وأشعارهم ومواقفهم والتي بقيت معه حتى رحيله الدراماتيكي الماساوي، فهو ذاكرة جمعية قلما تشاهد من يتشابه معها.. مما أثرى وأثر على نتاجه الأدبي والفني فيما بعد.

وما قصصه التي عنونها بالتماثيل خير شاهد على وفائه لأولئك الأشخاص الذين عرشوا في ذاكرته كأبطال اسطوريين في خضم أوضاع متقلبة لا يترك الزمن منهم غير مواقفهم وقصصهم، فمن ״حبشان״ ذاك الرجل الجنوبي الوادع والبسيط الذي أُجبر على الخدمة العسكرية على أرض الكرد.. ووقف موقفه الرجولي بعدم تنفيذ أوامر مرؤوسيه بقصف قرية وادعة آمنة.. هذا القرار الذي يؤدي بصاحبه للموت المؤكد، لكن رغم علم حبشان بما سيحمله عليه هذا القرار أصرّ وثبت عند موقفه ليؤكد إنسانية شريحة واسعة من الناس ورفضها حرب الأخوة والأهل.. عكس ما كان يسطره قصاصي السلطة

عن أبطال وهميين لا تدخل نفوسهم الرحمة أو الرأفة. كما كتب عن ملا يوسف الخالدي.. الرجل الحكيم والشاعر المبصر بمواقفه ونوادره وطرائفه اللاذعة.. وتحيلنا قصة "الوحش كراز" إلى آلة الدمار "الحرب" التي عمت البلد بأكمله على مدى أجيال متلاحقة.. هذه الآلة الرهيبة التي يصورها طه الطاهر بماكنة الحفر العملاقة التي تمردت على سيدها وثرمت كل شئ صادفها.. إحالة ذكية ومختزلة لما كان يحدث في العراق.. كان منشغلاً بالبحث عن أولئك الناس الذين أستوطنو ذاكرته مجلياً عنهم غبار الزمن والنسيان وناحتا إياهم تماثيل تغزوا بياض أوراقه لتنتصب بقاماتها وأساطيرها في ذاكرتنا أيضاً.

في سنوات لاحقة أخرى زاول فيها مهن عديدة ولم يستقر على احداها، مصورا شعاعيا في إحدى مستشفيات مدينة أربيل، صاحب محل لصنع وإبتكار لعب الأطفال من الخشب، محل في باب الشورجة ببغداد لبيع الملابس والالعاب، بائع أدوات سيارات في وقت لا يملك فيه أي نقود تفيض عن حاجة يومه أو تسد مصروف البيت والخمرة التي لم تفارقه.. عكس أقرانه الذين أغتنوا في زمن الحصار، لم يكن العمل بالنسبة له سوى الألتقاء مع الاصدقاء والآخرين لسد فراغ وقت روحه اللائبة.. دائم الحديث عن أصحابه الذين تشتتوا على دول متفرقة، وعن ذاك الشاعر والثوري "رياض البكري" صديقه المجنون بالثورة والحب الذي أعدمه النظام البعثي أواسط السبعينات ولم يحتمل حتى تسليم جثمانه لذويه.. يقرأ بغنائية آسرة قصائده التي يحفظها كأناشيد خالدة تأسر روحه وكيانه رفقة صوت مسعود عمارتلي وهو يتهادي كشعاع متكسر على صفحات الماء.. مسعود الذي يطربه دون سواه كونه صوتا مزيجا من رخامة وعذوبة الأنثى وعفوية الأداء الرجولي وصفاء الجنوب ووداعة الحباري.

أنظره سارحا أحيانا يلوذ بكلمات تختصم على شفتيه ولا يبوح بها.. وأحيانا أخرى تأخذه مقاطع من قصيدة لرامبو أو أراغون أو كامو أو السياب أوسعدي يوسف أو حاج زاير.. وتبقى شاغلته طوال اليوم حتى تعتعة الخمرة آخر الليل..

في إحدى المرات أقترح علينا أن يساهم أحدنا كل لقاء بمحاضرة أو بحث في الشعر أو الرسم أو الفولكلور أو السينما والمسرح أو أي شئ يستطيع الإبداع فيه، كان إقتراحا هاماً ومثمراً بدل العبث الذي كنا وسطه وهدر الوقت بأحاديث السياسة التي تقود دائما للخصام والعصبية والاختلاف.. رغم أن المياه تعود لمجاريها مساء اليوم التالي. وقد أبتدأ بنفسه بقراءة بحث شيق وفيه جهد استقصائي لظاهرة المطرب الريفي مسعود عمارتلي، جهد يليق بباحث مواظب رغم أنشغاله بشؤون حياته اليومية التي تتطلب منه العمل من الصباح حتى المساء لتوفير حاجة بيته وأطفاله الخمسة.. أستمرت هذه الندوة المتتالية مع الأصدقاء لفترة وجيزة حتى جاءت حرب غزو الكويت وما فعلته بتشتيت شلتنا الصغيرة تلك كما شتتت حلم العراقي بالاستقرار والسلام.. وعاد حديث السياسة وأوضاع البلد من جديد يتسرب إلى لقاءاتنا حيث كان أغلبنا هارباً من الحروب ومن الخدمة العسكرية الاجبارية ومغامرة الفكاك من أنياب رجال الأمن والجيش الشعبي وأعضاء حزب البعث.

في أحد الأيام دخل علينا وكان متجهماً لأن أحد الشباب في منطقته.. كان مهندس طيران متخرج حديث من الكلية العسكرية أنتحر شنقا في بيته، تحدث عن خلق هذا الشاب وطيبته.. وجرأته بإنهاء حياته بهذه الطريقة.. أحيانا كان يتحدث عن قرار الموت وكيف يكون سهلا وسريعا كإطلاقة مسدس في الرأس.. لم نكن نعبأ بما كان يخطط له ليقيننا أن طه كان حالماً كبيراً بأن الغد العراقي سوف يأتي.. لم نفكر جدياً بكم الأحزان التي داهمته سريعاً وتركت ندوبها التي لا تمحى في خياله.. موت الأم التي كان يتصورها خالدة للأبد وعصية على خذلانه.. تلاها موت الأخ والمعلم والضمير "يوسف" إهماله لنفسه وصحته التي تدهورت كثيرا وهدتها الأورام التي غزت قدميه ويديه ووجهه الجميل.. كان يقود نفسه لوليمة النار التي أكلت جسده وطهرت روحه اللائبة قبل أوان غد العراق الذي طال عليه.

الشاعر طه الطاهر
من أجل دفئنا قدم جسده قرباناً للنار

مقدمة

بقلم : الشاعرعيسى حسن الياسري

ً هناك شلة من الرجال الضاحكين
مرفوعي الرأس
يتحلقون بين ليلة وأخرى
حول مائدة عامرة
مترعة كؤوسها بالحب والأدب
بالمناكدة، بالجنس، بالسياسة
حافلين بكل أمل.. وعابثين بكل يأس
متحلقين يتحدثون عن ً فدعة ً و ً دستوفسكي ً
جاهدين ينتزعون لياليهم
ينتزعون لياليهم ليلة تلو أخرى

ناء وقريب.. متوهج كموقد نار.. ومورق كربيع في عنفوان طفل يمشي على عجلة خشبية.. وشيخ طاعن في السن يجالس هذياناته الغامضة غريب لم يألف أحداً.. ويحب حتى الذوبان فيمن يحبه.. هذا هو الشاعر (طه الطاهر) وكما عرفته منذ أن كان طفلاً يأتي قريتنا مع الخالة ً حليمة ً ليغمر جسده الغض في نهر ً أبو بشوت ً وسواقيه الراكضة باتجاه الحقول، ومن ثم إلى اللحظة التي جاءني خبر رحيله.. إذ وبعد أن أصبح جسده عبئا عليه.. وبعد أن رأى كثيراً من يحبهم وهم يرتجفون من برد اليأس والاحباط.. وبرد مغادرة من يحبونهم دونما وداع.. عند هذه الفاصلة التراجيدية من حياة تعرت عن

كل ما يمكن أن توصف بأنها حياة. وبدلاً من أن يغمر جسده بمياه ״دجلة״ التي تشققت هي الأخرى من كثرة ما تسرب أليها من دموع الحزانى والفاقدين.
والمفارقة هنا، وفي ليلة بعيدة عن تلك الشلة من الرجال الضاحكين و ״المرفوعي الرأس״ والذين شتت جمعهم الجميل والمدهش عتمة الكارثة وعصف ريح العنجهية..

× × ×

هل مات ״طه״...؟ لا أعتقد..
لقد أراد أن يحتفل بنا من خلال إحتفاله بموته..
« لا بد أن أحييكم في هدأة الليل.. هذي
الساعة تشير إلى الثانية والربع..»؟؟

كل شئ قد حدده طه بنفسه.. أنه لم ينس وهو يستعد أن ينهي رحلته الفاجعة في هذا العالم أن يرفع يده لنا بالتحية.. نحن الغارقين في سباتنا العميق.. كما لم ينس أن يحدد حتى الزمن بكل دقة ״الثانية والربع״ فأي معنى ترمز له عقارب الساعة التي تشير إلى ״الثانية والربع ليلاً״ أهي ساعة ولادته..؟ أم الساعة التي ينهي فيها ״الرجال الضاحكين״ ليلتهم التي انتزعوها من أشداق الزمن المفترسة؟.. أكانت هي الساعة التي غادرته فيها ״حليمة״ أمه.. أكانت تلك الساعة هي ساعة رحيل الأخ والصديق والصاحب ״يوسف״ والذي مع رحيله تفرق شمل أولئك الرجال ذوي الكؤوس المترعة بالحب والأدب.. حيث أنقلبت المائدة.. وتحطمت الكؤوس فوق شفاه الحجارة المتشققة.
لم يكن أختيار الوقت مسألة عرضية أو عابرة.. وقد نسأل بكم سبقت قصيدته ״جبة الدرويش״ موعد رحيله..؟ ربما كانت هناك بضع سنوات.. ترى هل كانت هذه الصورة المرعبة.. شبح النار.. رائحة شواء جسده.. فرار طيور الكلمات من شجرته قد عاشت في مخيلته كل هذا الوقت...؟

طه.. أيها الرائي.. أعذرني إن أزحت كل نظريات النقد ومناهجه وفرضياته بعيداً عن مملكة قصائدك.. لا أريد هذه النظريات والمناهج والفرضيات أن تتطفل على تجربة مدهشة في براءتها وعذريتها وعفويتها. لم تكن آبهاً بمدارس الشعر.. ولا بسجالاته.. ولا بتقسيمات أجياله.. بل وحتى لم تكن آبهاً بأي مجد أو شهرة تنالها من خلال تهافتك على نشر نصوصك .. كنت تعتبرها جزءاً من مقتنياتك الثمينة والأثيرة لديك .. لذا أبتعدت بها عن كل مصلحة.. لم تساوم عليها.. لم تعرضها للفرجة .. لم تسمح لأي متطفل على الشعر والإبداع والخلق أن ينظر أليك من وراء زجاج نظارته العمياء ليملي عليك دروسه الرديئة في تعليم الشعر.. كنت تعرف أن الشعر ليس درساً تعليمياً، لا يوجد في العالم معلم أسمه معلم الشعر، لقد أدركت ومن أول قصيدة كتبتها أن الشعر هو معلم هذا الكون منذ بدء الخليقة وحتى آخر قصيدة كتبتها ״فدعة״ أو ״السياب״ أو ״بابلو نيرودا״ أو ״لوركا. هكذا كنت ״يا طه״ درويشاً يرتدي جبة الصوفي.. ويسير بها بعيداً عن الزحام حتى لا يلحق بها التلوث.. أو يصيبها رذاذ من المياه الثقيلة التي تخبطها عجلات السيارات المسرعة إلى حيث لا أتجاه.

نادرة هي النصوص التي عرضتها عليَّ رغم أنني كنت قريباً منك قرب أولئك الرجال الضاحكين.. قلت لك ذات مرة.. أنت رائد قصيدة النثر في العراق..

نعم كانت قصيدة النثر التي يكتبها طه فريدة من نوعها.. ففي الوقت الذي كانت تلك القصيدة وعلى يد بعض الشعراء الذين يكتبونها لا تعدو كونها لعبة شكلية داخل اللغة.. بعد أن تم عزلها عن مكونها التجريبي والوجداني.. كنت أنت تسير بعيداً في قصيدتك عن ذلك السرب الذي ضلَّ الطريق.. كانت قصيدتك هماً يومياً.. اللغة فيها حرة طليقة كما هي خصلات شعرك التي تهتز بكل حرية أمام نسمات الليل والنهار.. لقد كانت قصيدة يومية بكل مواصفات هذه القصيدة البسيطة كسحنة الناس البسطاء الذين تناولتهم من أمثال ״حليمة״ التي كان يجد نفسه ضعيفاً أمام ״أن أبقي حليمة على ما هي عليه״.

وكم هو ضعيف أمام الحياة التي يخاطبها بضراعة وألم وكأنها إمرأة أسمها الحياة.. فلم يقل أيتها الحياة.. لقد بدأ خطابه بلا إشارة .. بلا أل التعريف.. فقط أستخدم أداة النداء.. النداء الذي هو صرخة داخلية موجعة رغم خطابه المباشر.. والنبرة العالية في النداء..

إنها طفولة القصيدة.. أو ليس القصيدة الحقيقية هي طفل يلهو ويعبث بكل شئ بما فيها ممتلكاته الشخصية.. ويبعثر رؤاه وأخيلته التي تجاوزت حدود الزمن الضيق.. من هنا كان نداء طه وهو يتوجه به إلى الحياة هذه الفكرة التي تفعل بنا ما لم يفعله ما هو مجسد ومعروف وواضح.. فهل أتخذت أدواتها التخريبية على غرار صفاتها الرديئة المجردة من التعريف..؟

" يا حياة
شزراً أنظر أليك
وأنت تبعثرين أوراقي
أوراقي الأثيرة.. واحدة تلو الأخرى
.....
كيف بودي أن أوقف عدك اللعين
هذا العد النازل الباهظ؟
من رياض إلى هاشم ومن موسى إلى أبو نبيل
ومن حسين إلى حسنة مايع.....

أشخاص بسطاء ودودون طيبون كبساطة وطيبة الشاعر.. لذا أتخذهم مادة قصيدته.. ومن هنا حقق دراميتها وتراجيديتها من دون أن يكلف نفسه عناء ما تجشمه "هوميروس" للبحث عن أبطال خارقين حتى يحقق تراجيدية "الالياذة" و "الأوديسة".. أو ليست حليمة ورياض (الشاعر المناضل الشهيد) وهاشم وحسين وحسنة مايع الذين حولتهم مخيلة الشاعر وحسه المبدع إلى أشخاص أسطوريين.. ونماذج ملحمية لا لشئ إلا لأنهم عاشوا وأسسوا الحياة التي كان يحلم بها الشاعر.. الحياة الحرة البسيطة الوادعة.. الخالية من كل ما يكدر ويوجع..

× × ×

ويحط المساء الأخير فوق جبهة "طه" .. المساء الذي يطرق الأبواب جميعاً كمتسول جائع.. إنه المساء اليتيم.. الذي سوف لن يحط مرة أخرى على الشجرة التي طالما وقف

طه قريباً منها وأصغى إلى أصوات طائر "الوقواق" الوحيد الذي أخذته أغفاءة آخر الليل.. فغادره السرب الذي كان يشاركه منزله ذا الأغصان الطرية.. والأوراق المنداة.. ذات الرائحة الشبيهة برائحة "فوطة حليمة" التي تعبق خيوطها الكحلية نسائم المحبة وأريج حبات الهيل والمحلب والسعد الذي حملته معها من شواطئ "أبو بشوت" وحافات منخفض "أم الغاق" عندما تكون في طريقها لزيارة مملكة طفولتها عند قرية "السنية". هذه المرة لم يكن المساء هو ذات المساء الذي عرف "طه" عبير صداقته منذ بدء أمطار نجوم أحلامه الذهبية.. إنه مساء المتضادات، فهو عميق في فيضانات ألوانه الشفافة.. وحزين كثوب حداد.. و "طه" الذي كان يهب لملاقاته مرحاً كعصفور إستحم في غدير.. ضاحكاً كطفل إستسلم لمداعبة أصابع الأم.. هذه المرة كان يسحب قدميه الثقيلتين.. وكأن حجراً هائلاً قد ربطه بكل منهما، لقد كانت ذروة إبداعية مدهشة هذه التي تتناغم في حركة أعماق الشاعر.. هذه الأعماق التي أسست مأتم رحيلها.. وسرادقاته من خلال مفارقات ترتفع بالشعر إلى قمته الناصعة.. عبر هذه التضادات التي لا تتوفر إلا إلى شاعر تشكل جلُّ عالمه من حقل هائل من العتمة والضوء.. السنابل الملأى بالحب.. وإبر الأشواك السامة.. الكتلة الثقيلة كناقلة بترول.. والخفيفة كورقة تلهو بها الريح.

إنني عائد هذا المساء العميق
مساء الحزن الذي طرق الأبواب مبكراً
أجر نفسي
تارة كناقلة للبترول كبيرة
وأخرى ورقة على الشارع يطيرها الهواء
ولكن..
ها قد أنقضت ليلة أخرى ...

إنها ليلتك الأخيرة "يا طه" الليلة التي لن تطرق الأبواب ثانية.. لقد كنت غنيمتها التي بحثت عنك طويلاً.. وها هي تمسك بك بكل لزوجة ظلامها وعتمتها التي تشبه لزوجة

"أخطبوط" أمسك بفريسته..
ولكن هل أستطاعت تلك الليلة أن تسرقك منا وتسلمك للغياب.. ربما تمكنت من الاستحواذ على جسدك المدمى.. . ولكنها لم تستطع أن تستل نسيم روحك العذب من أحداقنا، وها أنت أيها "السيد المسيح" يا من جعلت من النار صليبك ومساميرك وحبالك.. تقوم من موتك ثانية.. نازعاً عن جسدك وروحك أردية النار.. لتتجول بين الأماكن التي كانت ترتادها "حليمة" تطوف على بيوت أولئك "الرجال الضاحكين الذين ينتزعون لياليهم ليلة بعد أخرى".. تقف قبالة رياض وهاشم وموسى وأبو نبيل، وحسين وحسنة مايع.. ثم تيمم وجهك شطر المنافي البعيدة.. مفرداً جناحيك المنسوجين من الرؤى والأحلام وريش المحبة.. لتجالس كل أحبتك الذين فرقتهم رياح السموم المحرقة.. وبأبتسامتك الشبيهة بابتسامة الأولياء والدراويش.. تضئ ليلهم.. ليل الغرباء الطويل، من خلال عناقيد كلماتك التي تجلس ألينا نحن الذين نقف عند التخوم القصية من هذا العالم الذي أسلم زيتونة جسدك إلى محرقته المروعة.

جبة الدرويش

قصائد

المدينة .. الذاكرة

من يرسم صورتي هذه الليلة ؟
أي لحن ..
واي جرس .. ساستطيع الاذعان ؟
هذه الليلة
لا تقدر أي لعبة .. كلمة ان تخبئني
ولا ..
أي صخب يستطيع الطغيان
ها هم ..
وهذه مراكبهم مهتزة في راسي
....
راحلة ليالي الشتاء الطويلة
والسماء بدت .. حقلاً للنمور
بفعل المداخن
وانا .. طريح هنا بعد عاصفة غبية
سقف مثقوب ..
وحذاء طفل ,أي معجزة تعيد الدفء
مشرعة نافذتي لماض قصير
بلا ذاكرة للمستقبل
صريع كالاشهر الدامية
والكلمات التي قيلت لايلول .. لاذار
حيث لا فكرة بثقل المطارق
لا مشروع اخر لاستبدال التاريخ

صريع ..
ومن يعيد اضطرابي
أي لون ..
واية جلسة خائبة
خطاي مكدسة واضحة

ولكن أين اقدامي .. أين اشقائي
أين مدينتي .. أين سعالها
اين مجدها الذي تنفست بقطرة واحد
اين غبارها
عيون العاهرات سلاح تتناقله الايدي
جنون الاطفال مداخن لحني.. اين هم
واين الذي يرسم صورتي هذه الليلة

في ذيل الماساة .. اقف وحيدا
مثل شجرة وحيدة على البعد
وذلك الجندي الذي يهرول صاعدا
لقد غادرته الاضواء
واحمرت السحب هاربة منفكة للقاع
اين من هذا الزمان
يربطني .. ويفصلني
يحتويني .. ويطردني
لاي مملكة من بذور المغالات
اين رفاقي ..
صاعدين مثل اجراس خالدة
مثل سيل من خمرة ا سطورية
اين الايادي الموشكة

.....

صريع هنا
عند هذا العرش المحطم
مستعد للعري
وصافن بعين المنافق الذي سيقول
انا
متوسد صخور منيتي
بلا ذاكرة للمسقبل
هذا " مسعود " بنبرته الشاسعة
وهذه " حسنة مايع "
غريبون كحزن العائدين
ومعلمي القرى ..
والفوانيس ..
ظلاما .. والكلمة لا تشبه النصل
والثرثرة لا تشبه الطلقة
والسهر لا يشبه البكاء
وكل هذا مختلف عند كف الاله

صريع
ناشر احشائي مريرة
على حبل ترددداتكم
على زوايا همومكم وابتساماتكم
او تغيرون معي نوافذكم للماضي
فليس هناك ذاكرة للمستقبل

صريع
فارسموني كيفما شئتم
وتزاحموا على تذاكر الالتزام

النخيل قبلتي

أنت يا أيها الجناح المبلل الأشيب
أنت يا صاحب الذكاء
حيث النخيل يخطف حصته من الشمس ويجري
هبني من نظرتك الصافية
أنا الغرير
سأصحو
أو ربما سأنام
أو مؤجل كل هذا
منظر تلك الرؤى
وذلك الوهم
منتظراً أن تدوي برأسي
ساعة من الفرح
ولو مرةً واحدة

بغداد غطي جثمان شاعرنا

بغداد-تهيأي
بمكبرات صوتك
بهذه المناخير القذرة .. بصعاداتك
بواحد وعشرين إطلاقة مدفع
فرحا بالافاقين .. سماسرة البغاء
والقاتلين غسلا للعار
بإلتفاتات الفاشست الكريمة
تزين شوارعك.

بغداد
غطي منازلك الفقيرة بلون الرصاص
هكذا أمر البعث.
غطي عوراتك واحدة تلو الاخرى
غطي الابرياء في سجونك
غطي المحاكمات الظالمة
والصغار المشوهين
غطي الفساد و الرشاوى
غطي الاختلاسات
والازمات الخانقة
غطي أسواقك السوداء
غطي جثمان شاعرنا

غطي الذي كلل ثوراتك
بفضة بابل
«رياض _أبا نضال _تعال فورا
نحن بحاجة إليك »
هكذا كتب غسان كنفاني

بغداد
بهذه الدرجة الرفيعة
كان الذي دفنته البلدية
فالامر يقول
ادفنوا الشيوعية بصمت

بغداد
جهزي طائرات الهيليكوبتر
فالملك يشتهي حليب الناقة

بغداد
بغداد
البسي قفازك
وغطيها كلها
وتهيأي للنزال
وتفجري لملاحقة القوادين
فهم يجوبون الآن شوارعك الحزينة

كتب الشاعرهذه القصيدة في رثاء صديقه الشاعر، المناضل (رياض االبكري) الذي كان يقاتل في صفوف المقاومة الفلسطينية ، استشهد بعد ان اغتالته عناصر حزب البعث عام ١٩٧٨، اثناء زيارته لبغداد .

تخطيط بياني

ها إنك تطوّقينني مرة أخرى
ومرة أخرى لا بد من شئ يقال
وماذا تضيف هذه اللحظة التي سقطت فيها كل المعادلات
مدفوعة وكأنها حشدٌ من حراب، نحو هذا الامتلاء الجنوني ..
ماذا تضيف لشخصٍ ينزلق بشكل غير مؤكد
إلا أن المؤكد لديه هو عبقرية هذا الانزلاق
لشخص لا يعرف كيف يرتب كلماته
لشخص يدعي أنه يكره الاسفاف .. ويكتب لأجل
هذا الطفل الذي وهَبَتهُ له الأرض تواً، عن مراهقة تصعد معه
في السيارة، تشم إبطيها وينزل دونها ..
لأنها تبادلت الغمز مع السائق
عن إبن الثامنة الذي يترك تحت وسادة أبيه رسالة أنتحار
عن مجنون يصرخ وسط الشارع .

ما تفعل هذه اللحظة لهذا الذي لا يرى شيئاً
إلا ويديه تمتد إلى ورقه، ماذا تفعل غير التوقف
الذي تكرهين
تباً لها من علاقة
ولا أقول لماذا الاهتمام بالضمير

إقتربي ..

بالأمس .. وأنا خائن يود لو يرجع الزمن
الخنجر بيد والذين ما وفيت بعهدي باليد الأخرى

أقتربي ..
فأنا ما ندبت يوماً حضن أمي
ولا تمنيت قرية في السماء

أقتربي
ها إني مثل إله جديد ينبعث به النور
يخرج للعالم ببدعة عظيمة أخرى
ها هي تدار أمامي
كل صنوف المعرفة .. مثلما تدار الرحى
ومثل عملاق يجوب التاريخ بخطوتين
ها إني في اللحظة العليا
جدّي القرد ... يبتسم لحفيدي
بيني وبينك لا شئ
هذا فمي
وهذه كفي
وهذي حوافري
إقتربي إذن
قبل أن يحرق كل شئ
وقبل أن تطوى حياتي
مثلما يطوى كتاب

توبة ناقصة

لا تقبليني ..
مهما عويت .. ومهما كتبت
حتى لو حطمت كل الأبواب
فأنا ملوث
عاجز عن الحركة
في كل يوم .. أنهض مذعوراً
كمن ينفض يديه عن جريمة
أتجنب نفسي
وأمشي على الحافة
مثلما أتجنب النار
في كل يوم توبة
وفي كل يوم خيانة
إرفضيني
ولكن برفق سيدتي
فأنا .. واهن
خائر ..
رقيق أنا
وإبن هذا العصر
أنني لا أرتضي السوط
ولا البصاق
مهما يكن لون دموعي
أطرديني

تحايلي
تظاهري .. دون أهتمام
أنا طفل ..
وأقبل الكذب منكِ
سأرجع مثل فأرٍ ذليل
أو ربما ضاحكاً بصفاقة

توقف

أنني اعلم إن ذلك الشئ
ذلك الحرف
الذي عنده أكون طفلاً شقيق الخيانات
عنده ويتمزق البلعوم
ذلك الحرف شبيهك
أو شبيه بهذا الانخفاض
الذي يدوس أحشائي
بخنجر سيقال عنه جبان
هذا التدهور
سأجعله طرقاً للوصول إلى عتبتك
لأشطب عندها
كل ما كتبت ..
وكل ما صنعت
وكل ما حييت
وأسّمي ذلك نزوة

جبة الدرويش ×

لابد ان احييكم في هدأة الليل هذي
الساعة تشير الى الثانية والربع
وحيدا في غرفتي المفتوحة نوافذها
غامضا رغم البرد والمطر الخفيف
جزعاً ومتسخاً بالدخان والمدفأة
والدهشة باني أتجنب الكتابة لكم'...
ذلك انها العذاب بعينه
انها اللوعة المميتة
لعدم استطاعتها ان تكون الحديث
الحديث اليومي الذي لاينقطع
ليس وصولا الى شيء
انما لا أتذكر يوماً مر الا والحديث اليكم شاغلي ومناي
الا وصفحة تملا وقصيدة ناقصةً تكتب

اعينوني يا أهل الكهف
انه طرق يومي لا ينقطع
انا الضعيف الذي
كيف بودي ان اوقف هذا النزيف اللعين
كيف بودي ان أبقي" حليمة " على ما هي عليه

طرقاً على الرأس يا عويل

طرقاً على الرأس يا ذنوب
ياخيانة
ياحياة
شزراً انظر اليك
وأنت تبعثرين أوراقي
لا بل تطوين أوراقي
أوراقي الاثيرة ,واحدة تلو الاخرى
غيضاً ...
أنا قليل الحيلة
كيف بودي أن اوقف عدك اللعين
هذا العد النازل الباهظ
من رياض الى هاشم ومن موسى الى أبو نبيل
ومن حسين الى حسنة مايع ,صندوق الدنيا
ذلك المركب الاثير القديم
وحشد الملائكة
إنهم يحومون في هذا الليل بأجنحة دامية
××××××

إواه لابد أن اكتب لكم ..وكيف ؟
أنا المتسول دائما ... يعذبني الطريق
عنا وعنا جميعا.. عن العراق
عن القدامى ... وما نحن عليه
كثيرة هي الانباء
وكثيرة ,يا أحبتي ,مفاهيم وشعارات
ومحبة وصداقات ووجوه
لابد ان نعيد النظر فيها

كثيراً ما أبدو للبعض مرتداً
وحصراً عندما يكون الحديث ,عن العراق
عراق النخيل والبردي
عراق المياه والانهر
عراق المدينة الآسنة بقوانينها المتواضعة
بمثقفيها ,بشعرائها ,بالعدد الهائل من الصحف النابضة
عراق .... تلك مملكة زاهية
مملكة إنهارت
أغتيلت بمجيء الجمهوريات الزائفة
والشعارات البليدة ,والتي عمياناً ركضنا لها

×××××××

لابد انكم تتذكرون صديقكم القديم
الذي كان ومازال يفكر ويؤمن
وابتسامة دائمة ترافق ذلك التفكير
ليس في رأسي شئ من زغل ولا كذب
لارأي مسبق ولاثقافة
إنما أتسائل كثيراً وأبصق كثيراً
لا عبثاً ولا العمر له في ذلك
إنما أود ان اسكت الان
أود أن تقرأو كتاب " الساعة الخامسة والعشرون "
ستجدونا هناك .... كلنا

بغداد ١٩٩٣

×هذه القصيدة كانت جزء من رسالة كتبها الشاعر بعد وفاة الوالدة التي كانت اقرب الناس اليه ,ارتاينا تسميتها" جبة الدرويش " لانه الاسم الذي اقترحه الشاعر لمجموعته الشعرية قبل ان يغافلنا برحيله .

خطى النهاية

احدثك في هذا الليل المهزوم
احدثك ..
وكما لا تترك كلمة ، قبر ، اثر على الشفاه

احدثك
وتندفعين في راسي وسط ثمالتي
كما ينزلق اللحن في قلب الراقص
احدثك .. وحيدا في هذا الليل
مثل حصان ساهم في الظلمة
وحدي في جهة الخذلان
والعالم حيث التجّني

احدثك ..
رغم ان الكل يصرخ
والكل يصفق
فانا الذي سيقطع حبل النهاية
انا الفائز .. في هذه المسابقة الابدية
حتى ولوكان فوزا لا شرعيا
حتى ولو كان باقراص ممنوعة
حتى ولو كان السبيل الى ذلك
سكين ..

او طلقة سيكون الاشفاق عليها اكثر من الالم

احدثك ..
باحثا عن فأس ينهار اثرها قلبي
بكأس يشرب بطريقة مجنونة
بهذا العدد الهائل من الناس
بامرأة تغفو على صدر حبيبها في قطار
بازيز يقطع حبل الليل
بقط ينسل في الظلمة
وكانه الزمان .. ها
نائم ..؟
غافل ..؟
غبي كنت؟
في مضرب متوهج للغجر
عند نتيجة عظيمة ..؟
وسط العراء ..
بحافة منجل عاشق
حيث الشروق والغروب
في معركة خاسرة او رابحة
في ماخور موبوء
او حانة عتيقة مزمنة
آ ه ...
في غرفة هامدة
وسط الاعقاب .. والملابس المتسخة جدا ..
وعلاقة لا يقال عنها عظيمة
احدثك ..
وانت بعيدة عني ...

رسالة مسائية الى وردتي

الوقت مساء
وخطى تتربص خلفي
امنيتي سكين مستقيمة النصل
امنيتي محترفا .. وعند وريد الحياة
لا خوفا من ضربة اخرى
انما اكره الارتباك ..
انما اكره قلبي

.....

لولم يكن المساء شريط اللهب الطموح
وهو ينسل من روحي
لو لم يكن لحظة ..
موقدا بعيدا خالدا
يومض في رأسي
اه .. لو لم يكن المساء امرأة

.....

الوقت مساء

وانا بعيد .. بعيد عن الاخرين
لاحدثك اذن ياوردتي
وكيف لا يكون ثرثارا هذا الذي كل اشيائه مبهمة
هذا الذي لا يجيد المشي الا على هاوية
هذا الذي يعاند ..
كما لو ان جمعا يضحك وسط الشارع
يعاند بسر عطرك المجهول .. يعاند
وعم احدثك ..

انا رجل شيدته عيون .. القدامى
والمناضلات العجائز المنسيات
عن طفولتي التي لاداعي لها
التي لا مستقبل ولا مودع لها
عن الرجال الذين لايفكرون بالرحيل
والنسوة اللاتي لا يفكر بهن الرحيل
اذ تخطف الابصار سيارة
عن هذا التصفيق الذي يشد رأسي
رأسي قاعة الرقص
الخالية من ايما هتاف
.....
با لامس قتل امامي عصفور
يا وردتي
يا من تشاهدين فينا الضوء
لاننا نقابلك ..
اهي دمعة انسانية
ام حسرة مفسرة لا داعي للوقوف عندها
.....

خنجر هذا الذي اخترق راسي
ام حمامة حطتْ
تلك هي عاصفة لا نهائية
تلك هي معضلة بيزنطية
لا تدعو لشيء سوى الاشفاق
انني عائد هذا المساء العميق
مساء الحزن الذي طرق الابواب مبكرا
اجر نفسي
تارة كناقلة للبترول كبيرة
واخرى ورقة على الشارع يطيرها الهواء
ولكن ها لقد انقضت ليلة اخرى
ها لقد غادر من العمر يوم اخر
كلا لقد اضيف للعمر يوم اخر .. كلا
انني مشدود لكليهما
ومثل حصانين احمقين
كل يجرني لجهة
.....
اود يا وردتي
ان نجوب العالم والكون بلحظة واحدة
في غرفة صغيرة واحدة
على سرير واحد .. بلحن واحد
مرورا بكل الاديان
بكل تحية للنسوة فيها
ولا حاجة بنا للكلام
فلسنا بحاجة للضحك على انفسنا
.....

لقد مر البارحة (غاغارين)
ووراءه يركض حشد من الاطفال
القمر يمشي بارجله النحاسية
والغيرة تشتد بالانجم
اذا بماذا يفكر ذلك القابع .. الساهم
في احدى زوايا الشارع المظلمة
الان خيطا من الغم
يعلو هامة الافق المسائي ..؟
اريد موتا .. وذاكرة
اريد كابوسا عملاقا
اريد ان يخيب كل ظن

اريدك لانني اخاف وحدتي
اريدك فالطلقة لم تخترق العظم
اريدك ..
لئلا اغدو حزنا تافها
اريدك..
لاضيف شيئا واحدا
ربما صرخة واحدة
او حرفاً واحداً
اريدك..
بينما طفلة من شباكي تشير
وقمر يتكئ على اخر عمود من الشارع

اقول
انني ضائع واجري ...

شجرتي

«امشي مع الحزن ان الله يحب كل قلب حزين »

حديث شريف

في حديقة بيتي
عبثا تبحثون عن غصن اخضر
عن وردة ..
أو ندى ..
عن فجر ..
في بيتي الصغير هذا ، شجرة واحدة
واحدة لكن عبثا تبحثون
عن عشب .. او فراشة .. او شجر
عن ورقة اشبهها بقلب
او قلب اشبهه بوردة
لكنها شجرة واحدة .. انما شجرة واحدة
واحدة لم يلحظها احد
مزهرة .. متشابكة
عميقة .. كثيفة وسوداء ممتدة
هي الحزن

صورة لاحشائي

مقتولا منذ هويت ...
من بين افخاذها
منذ ان هويت ...
وانا خائف .. عند هذه العتبة الغليظة المتهرئة ..
خائفا .. مرتجفا مثل كلماتي
نائما انا .. وغدا سأصحو
او صاحيا وغدا أنام
ليس راسخا حتى الشحوب الذي يغطي وجهي
منذ ان هويت
وكان محاولة اولى منذ مئات السنين
اذ تلك التي ودعتني
تلك التي سوف لن يعرف احفادي عنها شيئا
بذات الحوار المخيف
في زاوية من رأسي مليئة بالضباب
استوقفني يومها ذلك الحوار
لاصدق
وهل اصدق
ان ذلك السيل من العشق اللانهائي
سيحتويه تابوت حقير
اماه .. الجالسون على السلم الملطخ بالدم ثلاثة
هذا بليد

وهذا مريض
وذاك جبان
ايهما يثير الحسد في نفس الاخر
وايهما لا يفكر بالموت اكثر من الاخر
اماه ليس لي ثمة ما يمكن ان ادفن به وجهي
احشائي ذئب تائه يقترب الموت منه
وقلبي طفل اعمى
وتلك امراة تبتعد في الطريق
سوف لن اراها مرة اخرى

بغداد ١٩٩٣

عندما يحلم القصب

- ١ -

عندما يحلم القصب
هناك ....
وفي الجانب المرئي من اللوحة ...
وعلى الوجه ذو الجفون النبوية المسبلة
أكوام من الطين المدمى
عندما يحلم القصب
وعلى الرغم من ذلك
يكون القمر مشدوداً ..
بخيوط شفافة زرقاء
إلى الداخل .. عند الوسادة " النامرد"×
عندما يحلم القصب
تكون الطيور قد غادرت أوكارها
.. دونما دليل
نحو الهجرة المتخالفة الأضلاع
حيث جدائل الوجه المدمى
صاحب العيون النبوية المسبلة
بقايا أضراس " فالةٍ " صدئة

- ٢ -

تشق سماء الشاطئ الزمني

أربعاً من دوائر الموج المتعاقبة
عندما يحلم القصب
لا بد للعيون أن يمتطيها النحاس
ليتحرك القلم المسحور
في هذه الليلة النائية
النائية .. ثلاثاً من الأحزان
إذ تأكل الوحشة كل الأسئلة ..
كل الأسئلة
سوى الخيوط المستميتة الزرقاء
عندما
يحلم
القصب

×

النامرد: لون البنفسج الفاتح في اللهجة العراقية

عيون الذئب

وسط الصخب ودوار الراس
احلم بامرأة
برفيقة قديمة
جسدها بارد كالعبير
امرأة تخجل من لمس ثدييها
امرأة كانت تحلم بسرير من الخيزران
بغيمة وردية
ومروحة خضراء متواضعة
امرأة ممتلئة بعض الشئ
سمراء .. ذكية
كانت تقول

"سوف لن تتزوجني "

لحظة حداد

الغيوم شاخصة كالذنوب
كتمركز الأيدي وأرتفاعها
شاخصة كبقايا " منعم فرات "×
شاخصة لا يمكن بالضبط أي من زواياها ..
وأي من رئاتها ..
مكابرٌ عنيد

دخان السجائر المحترق مرتين، والسكون
الواسع المضطرب، الصاوي في المكان ..
رغم كل ذلك
فأن راقصات الباليه
رقصن مع الغجر ... رقصةٌ رعناء
وعلى نار متوحشة واحدة
رغم كل ذلك فأن بريق المواسير المخنوق
بصداه
كان يبرق ويختفي ... الواحد بعيداً عن الآخر
بعيداً عن الآخر

إياكم والظن أني بعيداً عن الحسين
صاحبكم هذا ..
تكفيه " هربزي "×× واحدة

واحدة
لأن يندفع نحو الخارج

× منعم فرات: فنان نحات عراقي، فطري،اشتهر في اوائل السبعينات من القرن العشرين.
×× (هربزي) تكتب بالزاي ذات ثلاث نقاط ، كلمة كردية تعني تعيش او يعيش، كانت مطلع لاغنية اشتهرت بالستينات للتعبير عن الوحدة الكردية العربية العراقية، غناها المطرب الكردي احمد الخليل باللغه العربية (هربزي كرد وعرب رمز النضال)

قراءة أخرى

ماذا لو أخذتني قدماي
أصعد سلّمك المقهور
وأفتح بابك
أجيل الطرف
تتطاير كتلاويح الحرب قصاصات ذكراك
أرى في وجه الحرف خلود الأشياء
ألملم أشعارك
ماذا لو جُنَّ الليل ..
على ليلي
تأخذني قدماي
أرى في وجه معذبك
إشمئزازك
وإستبسالك
ثم بصاقك
ماذا لو أخذتني قدماي
أرى بين زوايا أغطية النوم
بلادي ..
والأرض بغياً تُشتم في باب المقهى
يُبصق في عينيها
وأرى الصباغين، وأقداح الماء
أرى أحزان المنتحرين
أرى الثوار

أرى الجبناء
وأفهم بمحيا أوراقك
أبتهجي يا أنتِ تواريخ الصمت
وعناوين الإصرار إزدادي.. وأحلم
أحلم بمحيا أوراقك
ماذا لو أخذتني قدماي
ألاقي العالم
فوق غبار الكلمات
أرى فيروز
وتحت وسادك
ألمح آخر أقراص الدهشة
كنت أباً في عينيك
الهائمتين بهذا العالم
ماذا لو أخذتني قدماي
أسافر فيك
تحاصرني في الصمت ثقوب الجدران
عيون إستغرابك
أشم قميصك .. تحت الأبط
رجلاً كنت ...
وحتى أخطاءك
يسألني عنك حبيبي
كم كنت كبيراً ...
ويداهم ذكراك حيائي .. إضطربي
أيتها الأوهام ولفيني
وإنغرسي بحوافر خيل هائجة
عند صداع الأيام ولفيني ...
فعلى أرض زحامي .. بيع الخوف

وبيعت أقراص النوم
ويداهم ذكراك حيائي
لكن ... يبقى يأخذني حلم الاقدام
أعير حذائيك المثقوبين
أمشيها .. أتوسدها
وأنادي أطيافك .. أحلم
وأنا أدرك أن نهاري
ليس قريباً
وكما تعلم

في ذكرى وضع الحجر الاساس لتمثال

يدير الليل راسا مثقلا..
اخف من النجوم شرودا
واصلب من ليالي البعد عودا
ويعقر كل يوم ناقتي .. عشقي
نروح حبيبتي صوب الغروب
نروح ليسخر خلفنا شبح الهروب
لنسأم بعضنا البعضا
وتنتحر الطفولة في سواد العين
ان الليل باركني
وحيا وحشة المقهور
أتهم ...
وأتهم
وألتحفُ النهار ليلا
ويلتحف النهار ليلي
حتى لاأسمع انك مت
قتلت ....
يقتلني اشتباهي
وادير ظهري

موتك كان صوتي
وحزنك ..يوم قتلت

ويوم ان رجفت رئاك
ويوم
يوم ....
لهاتيك العوالي
راحت حمائم نصرك
مجدك المقهور
تزحف بالنبوءات الغوالي
كان مضطربي
وكان منشطري
وكان ان صرخ العراق
ومن دون اشتعال
ولان جلاديك ارعبهم دما عينيك
هم فتحوا قتاماتي
وهم كسروا سؤالي
وكان وان هزأ (الاله) باحزاني
باحلامي برايات الرجال
ركضت
صرخت
حكيت
اشحت وجهي
«ان دمعي بالحوادث غالي»

للوطن .. وللذين يكتبون

وطني ...
ولتخرس هذه الاوراق المرتعدة
وليخرس مالئي عينيك من وحل ذقونهم
الخائرين ..
فصلوك عن جسدك
فما اختلفوا بشئ عن الطغاة ..
عن المجرمين

وطني يا وطن النخيل والدموع
احبك .. واحبك
لكني لا اجيد الندب على اطلال المعشوقات
حبا ..
فيه خيلاء اللحن
وفيه رجولة المندحر
حبا..
يجعلني لا استطيع
بل لا اطيق الكلام عنك ..وطني

وطني احبك لكن ..
لا اكثر من حبي لموجة طاغية لم ارها
اعشقها ...
عند الشواطئ البعيدة

وطني يا من تحتم علي ان ابصق في ارصفتك
وألعن تربتك
كما تحتم على بائع ا للبن
ان ينجب عشرا من الاولاد

احبك .. واهيم في دروبك الغالية
رغم اني لست متحمسا ابدا
لفكرة .. ان املا جيبي من ترابك
عند الوداع ..

ليالي عراقية....

بينما الجموع تركض .. ركضة الهم
بينما الأماني تبتعد والامل تمسح به الارض
بينما الوجوه تباع مع العيون والملابس المتسخة
والاجساد تعرى رويدا رويدا
بينما السياط تلهب الضمائر والظهور
هناك شلة من الرجال الضاحكين
مرفوعي الراس ..
يتحلقون بين ليلة واخرى
حول مائدة عامرة
مترعة كؤوسها بالحب والادب
بالمناكدة ,بالجنس ,بالسياسة
حافلين بكل امل _وعابئين بكل يأس
متحلقين يتحدثون عن فدعة ×! ودستوفسكي
جاهدين ينتزعون لياليهم
ينتزعون لياليهم ليلة تلو الاخرى

× فدعة: شاعرة شعبية من جنوب العراق ، يشبهها البعض بالخنساء لما نضمته من شعر باخيها. تعتبر اهم شاعرة بالفلكلور العراقي.

متاع النار

انا .. انا
ماذا اقول لكم في هذا الليل
انا المخطئ دوما
انا قُبلةٌ غير مؤكدة في خاطر هرم
وطفل بحاجة لمن يربت على كتفه كل يوم
انا الذي استطاع ان ينام حتى الصباح
رغم ان القمر كان بالغ السخف
ورغم إن مزامير الكرد كانت تمد لسانها

انا الذي .. ساترك شكواي واشجاني
عند نافذة مشرعة
متحسسا عار الدم السائح من منخري
انا .. عيب امكن اخفاؤه
انا خبر فاسد .. انا
انا راس حمار فاطس تتناهشه الكلاب
أنا الذي استطاع أن ينام حتى الصباح
رغم إن مزامير الكرد كانت تمد لسانها

ماذا اقول لكم
أنا الذي تتنفسونه ذات يوم
دخانا يتصاعد للأعالي

وناراً تتلوى ...
ماذا ؟
سأحرق نفسي
وأكون أنا ... بلحمي
بدمي ...
بلباسي الانيق هذا ...
ساعة الصفر .

موت رجل مغمور

هكذا بدأت معك
سهرت معك
الى اين يا ليلي المتوحد
ياحصاني الاسود البطيء .. ياعدوي
النجوم فيك أزهى
ومراقد ائمتي فيك ابهى وانبل
نظيفا بدأت معك
وادعا مشيت معك
الى اين يا ليلي

يداي مغمستان بهذا الوحل العظيم
خائن
ومنتظرا ان اضرب ضربتي
مهاجم لاتحدوه رغبة في الانقضاض
الى اين يا ليلي الساهم
ان حلما يروح، يجئ على باب راسي
يا ليلي
ويا طالعا كان يصفع النجم

هكذا مشيت معك
بالكلمة التي اكرهها كلها

بالتوق الهادئ
عندما يشق البلعوم الم الحياة المر
بالحزن عكازي المجيد
ببلادي من "حسن كرمياني "× الى " ناصر حكيم "××
بأفواه العجائز العطرة
بينما الريح تعصف بالضلوع
بالاعمدة تستبدل كل يوم صورة لشهيد
بالتمر .. بالنخيل .. بالنهر
"بجاعلات النقيق بريد الهوى "
بالغيوم
بالراحلين جنوبا
والراحلين شمالا
مناقير الزمان الدامية
بقلوب المطلقات
بـ (زينب) البعيدة
زينب ام ابراهيم
بـ (ساهرة) البعيدة هي ايضا ، بـ (علّية)

يداي مغمستان
واذني الى الارض
يدن برأسي ضجيج بعيد
فذاك الغبار .. جرس الخيول
وتلك النجوم نثار الزبد
لكل نصيب من الشهرة
ولكل باقة من خلود
سعيد ومغمور اذا
انتمي للحاضر

بهذه السقطة العجيبة
موقرا أتخلى عن العرش
لمن هم اكثر امتلاء واخضرارا وتسلقا
درجة اخرى
للحاضر وانا فيه بعيدا
الماضي .. المستقبل
القريب .. البعيد
خيول العربة الذهبية الصاعدة
هو اسمي ذلك الذي يبتعد
والويل لي
ان مت بغير هذا العشق

× حسن كرماني : من المطربين الاكراد المشهورين .للشاعر علاقة قوية واعتزاز بالغناء الكردي
×× ناصر حكيم : من اشهر مطربي العراق غنى بكل الاطوار التي عرفها الغناء العراقي الجنوبي بشكل خاص

نهار

لا بد لي من لحن آخر
هذه الليلة وأنا في غمرة الفرح
عادت تعتصرني غصتك يا حياة
يا حيّة رقطاء ناعمة الملمس
لابد لي من أنةٍ أخرى
مستعيراً مزمارك الزاهي الخبيث
لأعزف لحن الموت
أو بطبل الموت أقرع لحن الحياة
لا بد لي أن أبعثرك يا حزن
لابد لي أن أقطع أنفاسك
أيها الحبل البغيض الساخر
لا بد لي أن أنزع ثوب سحرك الأسود ...
لكم أنت كريم يا حزن
وما أسهل مجراك يا مرارة
يا حزن إنني مقبل إليك
بنفسي مقبل إليك .....
وسط هراءٌ .... لا ينتهي
فهذه هزيمةٌ أخرى للقلب
وجبن آخر يضاف
وكأن « حليمة » أخرى تبتعد
وحبا آخر يغادر
وأسطوانة للهجر تدور مرة أخرى

إلا إنني سأرتمي إليك
يا حضناً مزمناً
لأكون موجة من موجاتك
وحسرة من حسراتك
وبهذا يكون خلاصي
وبهذا سأحفظ البقية الباقية ..
من أحبتي وأصدقائي
البقية من الابتسامات
سأحفظها في ثلاجة الخلود
وأكون قد نفضت يدي
وأكون قد اشتريت راحتي
وأنا أتوسد يا حزن صخور شواطيك

هُنا

حدائقي هنا
جسوري هنا
في هذا الجوف الأخرق
وسط النفايات ... والعلل المزمنة
في هذا الجامع الخرافي الميت
حيث لا أثر للمصلين
هنا قلبي حذاء ملئ بالدم والفضيحة
هنا قلبي قنطرة .. صغيرة .. شريرة
تمتد ...

هل كانت أيامنا مجدبة
هل كانت أيامنا سخيفة
السهم يشير نحو الخسارة الأكيدة
هنا .. وهنا فقط
تزدهر حدائقي ..
هنا على بحيرة من الشذر الأزرق
أو في مستنقع للجذام
هنا بهمس على مقصلة
أو عند حرف طائش
هنا في غابةٍ محترقة
أو بحضن امرأة غبية

هنا .. ولا أدري
مثلما لا تدري سنة حائرة
تلتفت شمالاً .. ويميناً
لأنهم يحصون قتلاها
هنا أنمو
وينمو الأنين معي..
ينمو .. ينمو ..

وعي الجنون

سيدتي لماذا لا تلتفتين
هذا هو يوم الحزن
ويوم المساءات ..
مساءات الذنوب المشؤومة التي لاتعدُ
هذا هو يو م الصحو والجنون
سيدتي ... يا ذاكرتي
ايتها الخيانة
حيث لا يمكن الرجوع والالتفات
يا موضوع الخيبة المؤبدة
لماذا لا تلتفتين
وماذا تحملين بهذه الحقيبة الكريهة
وهي تثقل معصمك الغض
آتية من وداع
ذاهبة للقاء .. سيدتي
العربة التي مرت مساء على الجسر
بضجيج خيولها السماوي
هي التي اعادتني لهذا الطريق اللعين
انا سريع البكاء والضحك
سرعان ما اقع في اللعبة
في عدم احترام النفس
حالما المح طيفا
حبا كان ام كراهية

حربا كان ام سلاما
انه انا هذا الوعي اللامجدي
وعي الجنون .

قصص قصيرة
كتبت بين عامي
١٩٩٠ـ١٩٩٦

الحافة

الحياة هذه الرحلة العجيبة ترفعك تارة و ترميك في الحضيض تارة ، تسمو بك مرة ، واخرى تخزيك وتعريك وانت تعتقد انك في طريق الصعود والخلاص . .

لاأعرف أهو سوء الطالع أم حسنه هذا الذي رماني في هذا المأزق الغريب ! كنا في رحلة من رحلات الهروب من الوطن ، وكان ذلك عن طريق " الشمال " وبواسطة شبكة من المهربين الامناء . كان شهرا باردا وقاسيا من اشهر السنة ، لااسميه واتشائم منه ، بل اكرهه وانا على يقين بان الكل يكرهه ولا اظن إن لأحدا فيه ذكريات طيبة او عزيزه . .

قدر لنا نحن مجموعة من الرجال بيننا إمراة واحدة ، كلّ له اسبابه المختلفة للرحيل ، ربما اتحدث عن ذلك في مناسبة اخرى . قدر لنا ان نبيت مضطرين بسبب خلل في مخطط الرحلة ، في بيت منعزل ليتم ترحيلنا في الصباح بواسطة سيارات صغيرة وعلى شكل دفعات .

لم يكن البيت مستعدا لاستقبال ذلك العدد من الناس إذ لم يكن بيتا بالمعنى المالوف إنما كان غرفة صغيرة واحدة تجاورها غرفة أصغر لا تتسع الا لشخصين ، ربما أُعدت لتربية الدجاج او غير ذلك لذا كان علينا ان نبيت جميعا في تلك الغرفة الصغيرة متكدسين بعضا فوق بعض !

كان القلق والخوف هي المشاعر الوحيدة التي تخفق بها قلوبنا ، ولما حل الليل وكان قاسيا وباردا وحان وقت النوم ، فان الحيرة الخفية كانت على المرأة واين تنام ، كان الكل يفكر بحراجة الموقف وان لم يُظهروا ذلك ، لم تكن مفاجأة إذ عولج الامر بلباقة ولطف غاية في التمام .

كان لها خياران لاثالث لهما ، فاما أن تنام مع الرجل صاحب البيت وحارسه في بيت الدجاج ذاك ، وهذا غير ممكن وغير مناسب ، واما ان تتكدس مع المجموعة الخليط ، وكان هذا هو

الانسب او هو اهون الشرين كما يقال ، إذ ربما لن يكون هناك نوما ،او سنقضي الليل بالاحاديث والدردشة .

كانت المراة في الثلاثين ، بيضاء ، ندية وقد دار بيني وبينها حديث عام ونظيف طوال المساء وصار بيننا شئ من القرب بسبب انها كانت تعرف بعض اصدقائي القدامى ، فكان اذ اتسع لنا من الوقت للحديث في ذكريات بعيدة ولذيذة ، فكنت بهذا أقرب الرجال لها وقد شعر الكل بذلك، فلم يكن في المجموعة كلها أحد يعرف الآخر ولهذا السبب قُدر ان تنام بجانبي وان يكن الحائط بجانبها الآخر ، ولما كانت الاغطية والوسائد شحيحة فقد كان علينا أن نتدثر انا واياها بغطاء واحد وتجنبت انا الوسادة رغم انه قد عني بامر وسادتها ، وجعلت من سترتي وملابس اخرى وسادة لي فيما لو حصل ونمنا .

وإذ هجعنا متدثرين من شدة البرد ، وكان إثنان من شباب المجموعة يتصدران الحديث بالمرح والنكتة وقد أضفيا على الجو شئ من الطبيعية والاسترخاء ..ثم أخذ الحديث بالإنحسار وقد شملت الاغلبية رغبة النوم ، بعد منتصف الليل ، وقد عم المكان سكون شامل لولا حركة بعض النائمين ونحنحتهم بين الحين والآخر وما كان يسببه ضوء الفانوس الشحيح من إرتباك بسيط .

كنت قبل ساعتين من ذلك الوقت قد اختلست بضع لحظات خرجت فيها من الغرفة وعطرت جسمي بعطر متوسط الجوده كان معي وحرصت ان يكون التعطر خفيفا وغير مثير للانتباه ، ولكن رغم ما أحدثه العطر من ثقة ونشوة فقد شعرت بشئ من الصغار والذنب بل والانحطاط حتى ..

استرخت المرأة واغمضت عينيها متظاهرة بالنوم بعد ان تبادلنا ابتسامات قصيرة فيها الكثير من افتعالا للود ، وبالغت انا بالتحفظ من ان يمسها جسدي واستدرت عنها وتمددت على الجنب مفكرا بالآخرين وبماذا يفكرون وكيف سينظرون اليَ في الصباح وانكمشت على نفسي محاولا الابتعاد عنها لكنها سحبت الغطاء الذي ربما إنكشف عنها بسبب إبتعادي مما اضطرني للاقتراب قليلا جدا وبشكل محسوب ولاحافظ انا ايضا على الغطاء . وكانت هذه الحركة قدأثارت شئ من الارتياب في نفسي وبقيت حوالي نصف ساعة ممددا على جنبي ، لكني احسست بالم وتقلص في اسفل راسي من الخلف لذا قررت ان استرخي وقد شعرت بثقل الورطة التي انا فيها إذ ايقنت باني لن استطيع النوم وهذا سيسبب تقلبا مستمرا على هذا الجنب او ذاك ، وان يشعر احد باني غير نائم فسيبعث هذا خجلا عميقافي نفسي لاني

لم اواجه الامر باخلاق طبيعية.
وفجأة شعرت بها تتحرك ، فما كان مني الا ان انقلب وبسرعة على الجانب الآخرلتوحي للآخرين بأنها حركة واحدة مني او منها ، وواجهتها وما ان فتحت عيني حتى رايتها تنظر اليَ بعينين جامدتين ، غطيت راسي لأفكر بتلك النظرة واحللها .

احسست بانزعاج قاسي وانا الذي كنت في اول الامر مزهوا بتلك الثقة التي منحتني اياها . وددت ان اخرج من الغرفة رغم البرد الشديد ولكن موقفي لايسمح بذلك ، ماذا هل استنجد باحد لينام مكاني ؟ ..
ألحّت عليّ رغبة بان اقرفص رجليَ ، لكني خشيت ان تصطدم بركبتيها ، الا اني سحبتهما قليلا وبهدوء فشعرت براحة قليلة في جسمي ، وفتحت عيني بصورة غير محسوسة و.. مبتذلة ، لكني رايتها مغمضة العينين واضعة يدها اليمنى تحت خدها ، وتخيلت هذا الجسد الذي يرقد الى جواري ، تخيلته من اوله الى آخره وشعرت بان رقبتي قد تعرقت وتذكرت ايامي الخوالي ، حين كان حلما بعيدا ان انام مع امراة نوما طبيعيا ، وكنت اتحرق لذلك الى ان صار عمري اربعة وعشرون عاما ، أي قبل اكثر من عشر سنوات ، انا اليوم في السادسة والثلاثين وامراة غريبة تسوقها الاقدار لانام واياها هذه النومة الشاذة المفزعة ..!
حاولت ان ارجع الى صوابي وافكر باشياء بعيدة عن هذا المكان وهذا الجو ، فكرت بالصباح وما قد تستغرقه الرحلة والنقودالتي معي وصديقي الذي ينتظرني، وتمنيت ان الصباح قريب.

وفجأة تحركتْ وخيل إليّ انها حركة النائم ، كيف لي ان اتاكد انها غافية أم تتقلب مثلي ، أأسألها وماذا لو التصق جسدها بي من دون قصد فماذا سيكون من امري ؟ وماذالو اتصنع انا حركة النائم والتصق بها وارى ماسيحدث. سمعت احد النائمين يتنحنح ويتحرك وخيل الي انه مد راسه نحونا تاكداً . تيبست وانبعث في نفسي جزع شديد وتذكرت تلك النظرة الجامدة بماذا كانت تفكر، هل احتقرت هذا التحفظ الشديد؟
هل اشتهت ، هل احترق شئ بداخلها كما يحدث معي ؟ وسرحت في هذه الافكار .
فجاة شعرت بيدي قد استقرت على فخذها ، كنت احس بلذة هائلة كالتي في الاحلام ، وحرصت ان لا احرك اصابعي اذ يكفيها ماكانت تحسه من طراوة ذلك الجسد الناعم . كانت هي مستكينة صامتة ، قد تكون نائمة ، الا ان موضع يدي كان حساسا جدا ، لابد انها

شعرت بلذة حيث لايمكن الافصاح ، وصحوت على نفسي انتفض بعد ان سقطت في هوة . حمدا لله لقد كان ذلك حلما ، اذ لابد اني غفوت لحظات ، وتاكدت بانه حلما لاني وجدت نفسي مديرا ظهري اليها .

وشجعت فكري على النوم وعدم تعقيد الامور ، ان تنام معك امرأة ، ليكن ، وإن التصقت بها وإن استجابت أو لم تستجب ،فانت نائم ..هل تصرخ ؟ هذا محال ربما تلتصق بالحائط اكثر أو تدفعك بهدوء ، وفي الصباح سأدعي اللامبالاة وأتجنب النظر اليها وينتهي كل شئ . ولكن أليس بمقدوري أن افكر باشياء نبيلة وطيبة ؟ ألا أستطيع أن أرتقي بهذا الرأس الى فوق ؟ ولكن ماهو الفوق وما هو التحت ، وأين يمكن أن أضعك ياجنس ؟

رجعت الى أيامي البعيدة كان لي صديق أيام مراهقتي وكان كل منا يحب ان يسأل ذلك السؤال ، هل نمت معها ؟ كنت أمتعض لسؤاله وأستهجنه ، كيف أنام معها وانا أحبها !..وماذا تفعل يا أخي مع من تحب ،سوى أن تنام معها وتريحها . كان يفاجاني بهذا الحديث إذ كنت أكتفي بلمس يديها رغم اني أتحرق شوقا لجسدها وأقضي الليالي مسَهدا لذلك ، لاشك ان ذلك كان من صلب تكويني وتربيتي التي لااعرف إن كانت صحيحة أم مغلوطة ، لكن رأي صاحبي ظل يلاحقني ، فحبيبتي ماتت وهي في ريعان شبابها ، رحلت دون أن يتسنى لي فرصة النوم معها .

ما علاقة حبيبتي الراحلة بهذه المرأة النائمة أو ربما الصاحية ، التي بجانبي ؟ وددت لو أسالها فيما لو كانت راغبة ، فسيكون ذلك في وقت آخر وليس في هذه الليلة ، التي اريد ان ادعي فيها الشرف والبطولة، فكرت ان انسل بهدوء وأقضي بقية الليل في الخارج ، لكني خشيت من تصور الاخرين باني ربما ارتكبت عملا مشينا وهو الذي اضطرني الى ترك المكان .

وخلال تقلباتي وجزعي فان المسافة التي بيني وبينها ظلت ثابتة كالسراط المستقيم . تمنيت لو كانت ترتدي فستانا فلابد ان ينكشف عن ساقيها وهي نائمة ،كنت على الاقل سالهو واتمتع بالنظر الى تلك الساقين الطريتين وسط العتمة ، لكنها احتاطت لمثل هذا الموقف على مايبدو اذ كانت ترتدي بنطلونا مما يلبسنه الفتيات في السفرات عادة . وتسائلت هل انا بالرجل الشريف حقا، اذن لم هذه الافكار؟ وهذا الجسد الذي بجانبي" امانة " كما يقال . ولكن ماذا لو مدت يدها وسحبتني اليها وددت ذلك ربما لارى رد فعلي او رغبة مني ، لم

اكن اعرف !
اجتاح راسي شئ من البلاهة والصبيانية وقلة الترفع وعدم استاطعتي الافلات، وانا الذي قد أُعددت على غير هذا كما اعتقدت ، فاني مانظرت الى النساء كيفما اتفق ولا نظرت لأمرأة حامل يوما ، او من تمشي مع رجل ،كانت لي ضوابطي وكانت لي افكاري الكبيرة، كنت محترما بنظر الاخرين لهذه الاسباب . وها انا في هذه اللحظة على حافة التلبس ، على حافة الخيانة والافتضاح، فلو حصل لن يكون مجال للتراجع والندم والالتفات. احسست بقطرة عرق تنساب من اسفل اذني الى رقبتي ، وتذكرت ليلا بعيدا اشد رعبا من تلك الليلة ، ليلا مشيت فيه على حافة اكثر هولا من هذه الحافة التي امشي عليها الان .

كانت تربطني برجل علاقة لاباس بها ، كان هويعد نفسه صديقا لي ولااعرف درجة الصداقة تلك ولا مداها الا انه بدى صديقي على كل حال ،كانت له زوجة غريبة الاطوار ، انتبهت الى انها كانت تنظر لي نظرة خاصة فيها الكثير من الميل والهوى . وحين انكشف ثوبها عن ساقيها يوما فانها سترت نفسها وهي تنظر الي ضاحكة متعمدة متخابثة ، كنت على الحياد رغم اتفاقي مع من يقول بان خيانة الصديق هي الطريق لكل خيانة بما فيها خيانة الوطن . لطالما كان ذلك الحياد يحزنني ويبعث الشك في نفسي وفي شخصيتي واوشكت ان اتيقن بأني رجل غير ثابت الجنان كما يقال، انما رجل مهزوز متلعثم القيم ومرتبك المبادئ إذ قابلت سلوك المرأة ذاك بابتسامة مبهمة ليس فيها الرفض ولا القبول الا ان السماء ربما هي التي رفعتني من تلك الفاجعة إذ صادف ان اختلينا انا واياها ، كان ذلك في حفل زواج كانت نظراتها لي حائرة قاسية مبهمة وكان قلبي يخفق مسرعا وكنت موشكا وعازما ، لااعرف على ماذا ؟ هل اهرب ام ادنو منها ، كانت تتنازعني الحياة كلها ، وفيما نحن متوترين يلفنا الصمت والحيرة ،سمعنا وقع اقدام وكان زوجها ولم يرتاب بشئ ، الا ان احشائي هي التي غارت وراسي هو الذي اصيب بالدوار وهذا غير ظاهر للعيان. لمحتها تنظر لي مبتسمة بعين كلها عطف وخبث ، كان ذلك حدا شبه فاصل في حياتي اتذكره واصاب بالرعب وان كان منذ زمن بعيد .

لكن هذه المراة التي بجانبي الان ، غريبة فأية خيانة ، فوجئت في تلك اللحظة بامر لم يكن في الحسبان إذ تنبهت الى رجلي اليمنى تهتز وترتجف على غير إرادة مني ، وبشكل مفضوح

، هل هو البرد لكن لماذا رجلي اليمنى فقط ؟ حاولت ان اطوق الموقف واسيطر على تلك الرجل اللعينة ولكن دون جدوى ، ارتبكت وخجلت فمن ينظر للغطاء الان وهو يهتز بتلك الصورة ، فانها ستبدو حركة غاية بالسخف ومثيرة للاحتقار .

ربما هو الحرج واية حراجة في هذا الليل وكيف اتدفأ، هل أضمها او أقرفصُ بجانبها ، تحت إبطها الدافئ واهمس لها بانها ضمة أخوية ؟ الا أني زفرت زفيرا طويلا وهو الذي حررني من تلك الورطة واراح جسدي وهدات ورجعت اتسائل مرة اخرى ، أي خيانة ؟ انها امراة غريبة .
وماذا لو بادرت هي ؟ سيكون من الفضاضة والتصنع ، ان اصدها ، بل وقلة شرف ، إذ كيف ساحتمل خجلها وذلها لو ارفضها وادفع يدها مرتديا مسوح الرهبان الزائفة ، وهل فعلها احد قبلي ! ابعدت هذه الفكرة من راسي وشعرت بنفاذ الصبر يزهق صدري ، فرفعت راسي ونظرت اليها بصراحة ودون خوف وبلا لف ولا دوران ، ربما لارى فيما لو كانت امراة مبالية او غبية ، واحسست بجزع كبير لكن احزنني مرآها إذ خيل الي انني ارى ذل المراة وضعفها وسط مايحيطنا ويلفنا من قسوة وتسلط ، وذلك ماسببه الحزن الخفيف الذي كان يعلو وجهها الجميل ، ذلك الوجه الذي يشعرني بالخجل والانسحاق، عند الصباح حين تكون على ما أظن قد قرأت ما جال في راسي ليلا من التقلبات الكثيرة ومن العطر الخفيف الذي لابد احسته في ذلك الليل الناقص والذي لااعرف ان كان سيبقى ناقصا او يكتمل ؟

غمرتني لوعة كبيرة وكان قلبي يخفق للصباح ولمراى وجهها والتطلع اليها والنفاذ الى دواخلها وفيما اذا كانت قد احتقرت ذلك الليل او قدسته ، ربما ستكون ممتنة وشاكرة ، او سيكون سلوكي ذاك مفتاحا للاحترام والحب .
كانت لهفتي تشتد لمرأى الصباح الذي بعدت المسافة بيني وبينه وكنت استعد كما لو سألاقي حبيبا غاليا ، إذ قد تتفجر كل مشاعر الليل عندما تلتقي نظراتنا وقد تحسم امور كثيرة خلال الحديث وقد ابوح لها بما قاسيت ، وفكرت ان المرأة تكره الابتذال في مثل هذا الموقف وتميل الى الستر والكتمان ، لذا وطنت نفسي أنا أيضا أن أتادب
واحفظ كرامتي واحافظ على المسافة التي بيني وبينها واحاول النوم .لكن آه لو حدث هذا في النهار ، فقد اتبين مشاعرها من نظرة او حركة ، لكن في هذا الليل البارد وعلى ضوء

الفانوس المعتم ، ماذا ارى منها ، وآه لو كنا وحدنا لتبادلنا اطراف الحديث ، والحديث لابد سيفضي الى ما بالنفس ...

شعرت باعياء شديد وبحاجة كبيرة للنوم ، وبما يشبه اليقظة سمعت اناسا يركضون على سطح الدار وامراة تنشر ملابس بيضاء على حبل غليظ وجلبة وضوضاء مشوشة وبما يشبه صوت لسيارة ، لااعرف كم مضى من الوقت على ذلك إذ فتحت عيني واحسست ببرودة المكان .

كانت المراة قد غادرت الفراش وحدثت نفسي ربما هي الآن تغسل وجهها الجميل الذي ساتطلع اليه قريبا او تساعد حارس الدار باعداد الفطار لنا.

جلست ملتفا بالغطاء الثقيل ، كان اثنان او ثلاثة مازالوا في فراشهم والبعض يحزم امتعته ، دخل احدهم الغرفة واخبرني بان المراة قد غادرت عند الفجر في اول سيارة .

تظاهرت باللامبالاة إلا ان الدهشة قد غيبت احشائي ، واحسست بالطعن والاهانة ، وفكرت ومنيت نفسي بانها استعجلت الرحيل خجلا وتجنبا من النظر الي .

اطرقت راسي وكنت محاطا بشئ من البلاهة والحزن وقلة الحيلة .

تمثال في كاني ماران

هذه ناحية «سر قلعه» التابعة لقضاء «كفري» في منطقة كركوك ذات المرافق الحياتية البسيطة والتي تشبه وبكثير من الأحوال نواحي العراق شماله وجنوبه، من حيث الإهمال والذي يبدو وكأنه متعمداً... ومن حيث الأسواق الفقيرة، والدكاكين القديمة المعوجة والمطاعم والممرات الآسنة والناس القدامى.

وتشترك بشبه حتى بأسماءها فهناك «قلعة سكر» و«قلعة صالح» في الجنوب، وغيرها وسبب ذلك ولا شك هو لما ابتلى به العراق و إضطراره لبناء القلاع.

وأنه يبدو أمراً ملفتاً للنظر، ولا شك لغريب عن هذه الناحية القصية، أن يلقى جندياً ، رجل من الجنوب ، تابع لجيش الحكومة، ترحيب فوق العادة واحترام يفوق الحدود ، من كل أفراد هذه المنطقة والذين كلهم من الأكراد .

كان رجلاً مشهوراً عندهم وكان مثار حب واعتزاز أينما حل، فإن اشترى شيئاً من الخضروات أو تغدى في مطعم أو شرب الشاي فأنهم يرفضوا أن يأخذوا ثمن ذلك، وهو بدوره يأبى إباءً صادقاً، وكان ذلك يزيد من الحفاوة والترحيب والفرح لملاقاته.

كان رجلاً طويلاً ممتلئاً أحمر الوجه مفتّل الشعر أشعثه، وليس نادراً أن يرى رجلا من جنوب العراق بهذه الصورة.

كنت أعرفه لأنني كنت معه وأعرف سبب هذا السلوك وهذه المشاعر إزاءه من أهل الناحية وأن أبوح بأسمه الغريب كهيئته الغريبة فأني لم اصنع شيئاً من الخيال، وسوف لن أتكلم عن خواطر وهموم، إنما أتحدث عن أمر عشته معه وهو الذي أطلق شهرته ولا أزيد عليه... عن رجل عرفته وعملت معه وأحببته ذلك هو «حبشان عجيل عفريت».

كان ذلك في سنة خمس وثمانون وكان صنفي في الجيش «مخابراً» في رعيل للمدرعات

وصنف «حبشان» هو «رامي درع» في نفس الرعيل. وكنا متجحفلين مع فوج للمشاة من أفواج الحدود في منطقة شبه جبلية متفرقة الخضرة تبعد خمسة عشر كيلو متراً عن قرية تسمى «كاني ماران» ومعناها ينبوع الأفاعي، وهي تابعة للناحية التي إشتهر بها «حبشان» ناحية «سر قلعه» .

فوجئنا ذات يوم بالتحرك نحو هذه القرية ، فوج المشاة والرعيل المدرع، وسبب التحرك فيما عرفناه بعد ذلك أن مصادمة وقعت في الليلة الماضية بين الجيش ومسلحين أكراد. أسفرت عن مقتل ضابط وحامت الشكوك بأن المسلحين الأكراد إنما انطلقوا من هذه القرية. وطالما مُسحت قرى وهُدمت أخرى بسبب شكوك كهذه.

كان رعيلنا المدرع مكون من ثلاث مدرعات إثنان منها عاطلة ومدرعتنا الوحيدة الصالحة للعمل والتي كنت مخابرها و «حبشان» الرامي فيها. كانت مدرعة من نوع «بنهارت» تسعون ملم فرنسية الصنع تطلق نوعين من القذائف، إحداها نسميه «مهداد» و المهداد حال انفجارها فأنها تننشطر لآلاف الشظايا ليكون الفتك اكبر وأشد.

كان المقرر أن يكون الهجوم على القرية في الساعة العاشرة صباحاً، وعسكرنا على مقربة منها، وكنا نرى القرية ونرى بيوتها.

وفي حالة كهذه يحضر إلى جانب آمر الجيش، المسؤول الحزبي، لأسباب كنا نجهلها وكنا نجهل الحركة والنشاط للضباط وضباط الصف وفيما نحن بالانتظار وبعد أن أخذ كل فصيل مكانه وهدأت الجلبة بعد رحلة ليست طويلة، وغير متعبة فلم تكن أحمالنا ثقيلة، ذلك لأن انتقالنا مؤقتاً...

دوى صوت آمر الفوج... كان صوتاً قوياً صارماً لكنه خالياً من السياقات العسكرية:

- حبشان!
- نعم سيدي.
- صدرت الأوامر بأن تطلق ثلاثة مهاديد (قذائف) على القرية.

حدق حبشان في الآمر بضع لحظات...

كان هذا الضابط قد شارف على الأربعين من عمره، وسيماً، حليقاً، وعينين محمرتين متعبتين. وكان سخياً مع جنوده محباً للنظام رغم أن مكتبه لا يخلو من زجاجة أو زجاجتين من الويسكي وكان همساً يدور بين الجنود بأنه يبدأ الشرب منذ الصباح، رغم انه لم يبدو أن لديه متطلبات إضافية سوى ما يلاحظه المراسل من كثرة أعقاب السكائر عندما ينظف

الغرفة.

كادت هذه اللحظات السريعة التي حدق فيها «حبشان» أن تحدث ارتباكاً بالضبط العسكري إلا أن الضابط استدرك:

- همّ.. مستعد؟

- سيدي من يرمي ثلاثة مهاديد على القرية؟... هكذا تكلم «حبشان» .

- من يرمي؟! التفت الضابط شمالاً ويميناُ ثم أردف متسائلا:

-أهناك مدرعة صالحة غير مدرعتك...؟ أهناك أحد غيرك؟ وعلام أنت متجحفل مع الفوج؟

أجاب حبشان بهدوء:

- حسناً سيدي إنا لا أستطيع الرمي.

- لا تستطيع؟ أتهذي أنت يا هذا... كيف... ماذا...لا تعرف؟

- أعرف سيدي... ولكنني لا أرمي.

- هذا أمر عسكري يا حبشان يا غضباً اسوداً.

- سيدي سواء كان أمراً عسكرياً أو غيره فأنا لن أرمي هؤلاء ، سيدي أنا رجل يخاف الله!

- أتعرف عاقبة عصيان الأوامر؟

حبشان مندهشاً:

- أتصدق أم تكذب سيدي ، أرمي هؤلاء الناس وأنا لا أعرف أحد منهم وليس لي عداء مع أحد منهم؟.

في هذه اللحظة تحرك المسؤول الحزبي بعد أن كانت أنفاسه متوقفة وكذلك أنفاس نائب الضابط وكانت صدور الجنود تعلو وتهبط وقلوبهم تضطرب منتظرين مذعورين.

- إن عقوبة عصيان الأوامر هي الإعدام يا «سيد حبشان» هكذا تكلم المسؤول الحزبي متهكماً.

التفت حبشان إلى آمر الفوج.

- سيدي من أين لي أن أعرف أين ستسقط «المهاديد» الثلاثة ، على رؤوس الأطفال...على النساء؟

إلتفت الآمر إلى نائب الضابط:

- قدمه لي مذنباً غداً صباحاً.

وهكذا تعطل الهجوم، وإنسحب الآمر والمسؤول الحزبي مضطربين مسرعين سرعة مفتعلة.
وتحلق الجنود الذين كان من بينهم أكراداً كذلك حول حبشان وكان هو يردد:
-أرمي... كيف أرمي... أرمي البيوت... أرمي الناس؟
شوهدت سيارة المسؤول الحزبي تنسحب بعد الغداء مخلفة وراءها غباراً خفيفاً. ولم يظهر آمر الفوج طيلة اليوم مما أضاف للساعات التي مرت قسوةً وقلقاً.
كان ليلاً مقمراً ذلك الليل وكانت الليالي المقمرة كالحرز بالنسبة للجنود لأنها تبعث الطمأنينة والنوم الهادئ وتبعد أشباح الليالي الحالكة، إلا ذلك الليل كان ثقيلاً وموجعاً وكابوساً لا نهائياً، وانزوى "حبشان" في ساتره إذ كانت أحاديث الجنود معه مقتضبة أيما اقتضاب.

كان هناك شعور أقرب ما يكون شعور بالعار ، هذا ما كنت أشعر به على الأقل لأني، لا أتحدث عن شيء لم أره، ولا أدري ما جال في رأس الرجل الأحمر الأشعث المنحدر من الجنوب ومن «قلعة صالح» بالذات وصاحب الأبناء الثلاثة، سوى أن حبشان كان يشبه كثيرين نصادفهم في حياتنا، أناس غير متعلمين، وليست لديهم ثقافة رغم ذلك لهم شخصية ثابتة، وملامح قوية وأراء ظريفة يحسدون عليها ونحبهم لأجلها.
كان لحبشان آراء ثابتة يسوق الحجة تلو الحجة لإقناعنا بصحتها، بغض النظر عن اتفاقك معه أو عدمه. كان صادقاً وشجاعاً وطيباً ,وكان يهابه كل المهابة جنود معنا من أبناء منطقته، وكانوا يستغربون عندما أختلف معه وأحتد عليه. وإذ خيرته يوماً بين أثنين من المحرمات التي هو بعيد عنها فأنه أختار القمار على الخمر وقال:
- إن الخمر خسارة دائمة، أنت على يقين منها. أما القمار فهناك إحتمال للربح... كانت حججه بسيطة وواضحة وطريقته هذه في الحياة هي التي صورت له ولاشك ما بذلك الأمر العسكري، وما بذلك الهدف من شذوذ ، بيوت ساكنه لا حراك فيها كيف أرميها ؟

كان الكل متيقظاً تقريباً، عندما شوهد وهو يتوضأ عند الفجر...
وفي الساعة التاسعة صباحاً اقتيد حبشان «حاسر الرأس» بصحبة نائب الضابط، وأدخل إلى غرفة الآمر وكان الكل ينتظر... والكل مضطرب... وكنت أنا على ما أظن

أكثرهم خوفاً واضطراباً.

إلا أن «حبشان» قطع هذا الاضطراب بعد دقائق عندما رأيناه يخرج من الغرفة بنفس السحنة التي دخل فيها وهب الجميع لملاقاته...

- حبشان ماذا..؟

- ماذا قال الضابط؟

- ها... مجلس عسكري؟

- لا شيء إن نشاء الله...

هذا ما كان عليه الجنود...

إن الأيام التي عشتها برفقة حبشان علمتني أن لا أستغرب مفاجئاته، ولكن مهما فكرت وخمنت ما أسفر عن لقائه بالضابط، فأنه لم يخطر ببالي انه سيتفوه بمثل ما حصل.

إذ أجاب بكلمة واحدة... كلمة غاية في العذوبة... ولكنها كانت مدوية كالمهداد الذي أبى أن يطلقه على القرية إذ التفت مبتسماً للجميع، وقال موجهاً الكلام لي:

- قبّلني!

إنسابت هذه الكلمة بسرعة، وتسائل واستغراب واهتز الجمع المتحلق حوله:

- كيف... من... الضابط؟

لم يقدر أحد أن يبت وسط الدهشة والقلوب المضطربة فيما إذا كان حبشان جاداً أم هازلا...

إلا أنه أدار ظهره للجميع ومشى وسط اللغط:

- نعم قبّلني!

ملا يوسف الخالدي

كانت «الوشاش» مدينه صغيره تقع في الطرف الغربي من بغداد وكان بناء هذه المدينة بسيطاً، شارع عام تتوزعه على الجانبين شوارع صغيره تتقابل فيها البيوت ، صممت بخرائط بسيطة ايضاً، بنيت بالطابوق ورصفت «بالفرشي»×.

وكانت رغم شوارعها المتربة فهي محاطة بالبساتين والمزارع وترعة رفيعة ممتدة الى شمالها ، وشط كبير الى الشرق منها هو «شط الوشاش».

وكما تبدو لي الآن على تلك الشاكلة البسيطة ، فقد كانت غريبة كل الغرابة ومن وجوه عديدة . فهي موطن كل فئه وكل مذهب وكل جنس وكل عشيرة في العراق.

فالكردي والعربي السني والشيعي والصابئي والمسيحي ، الابيض والزنجي كل هؤلاء من النادر الا يكون لهم «مندوب» أو «ممثل» في هذه المدينة.

والى جانب اسطبلات خيول السباق «والسيّاس» والجاكية ، يوجد المثقفون والمنتديات الادبية والجوامع وعلماء الدين.

وحتى مصورها فهو وجه فني بارز من اوجه غرابتها ، فقد كان هناك في طرفها الغربي ستوديو للتصوير وعادة ما يضع المصورون في معارضهم صوراً انيقة لفتيات جميلات أو لاطفال حلوين أو صورلشباب بأوضاع مختلفة...

أنما أبى هذا المصور إلا ان يضع وفي الصدارة من معرضه وبحجم كبير صورة لكل مجانين الوشاش وكانا خمسة وقد نجح بحيلة تصويرية بارعة أن يجمعهم في صورة واحدة ، وكان يشير بغمز «هؤلاء هم الخمسة الدائميين».

وفي الطرف الشرقي من هذه المدينة كان ينتصب وجها فنيا اخر انه، «سينما الوشاش الصيفي» عالماً من البهجة والاحتفالية والهرج والمرج ، من بائعي المرطبات ، و«العنبه والصمون» ، و «اللبلبي» و«فستق العبيد».

كذلك عرفت دار السينما تلك بعض المعارك الخفيفة ، فهي دار عرض لكل شيء بطابعها الصيفي وارضها الترابية التي ترش عصراًومقاعدها الخشبية الطويلة فاتحة الخضرة وصوت

«عبد الوهاب» «عندما يأتي المساء» أو «احب اشوفك» كانت تلك الاغاني ثقيلة على مسامعنا نحن الصغار ، لكنها ولا شك من ذوق صاحب السينما أو مديرها الفني.
كانت قلعة من قلاع ثقافة الوشاش النامية وذوقها الشعبي، رغم ان معظم روادها من الصبيان والعاطلين، إذ كان هواة السينما ويدعوهم «السنمجية» فئة مترفعة حديثها لا ينقطع وهواها هناك في «شارع الرشيد» حيث الاضواء والاعلانات الكبيرة ودور العرض الكثير المتجاورة ومكاتب شركات صناعة الافلام. مثل «فوكس والقرن العشرين»و «متروكولدن ماير» واخريات...هناك في «جبال السيرا ما يسترا» و «الموبي دك»، كاري كوبر و كيم نوفان و همفري بوغارت و جيمس كاكني واخرين...
كانت فعاليات المدينة موزعة على جهاتها الاربع تمام التوزيع ومرتبة تمام الترتيب ففي الجنوب منها كان ملعب كرة القدم وكان فريقها مفخرة رياضية واسم لامع من اسماء الفرق الشعبية في بغداد.
لقد كانت مدينة لا تخلو من شيء تقريباً فكان فيها النشال المحترف والمصارع والفنان الغامض ، كانت مدينة ضاجة...بمقاهيها... بافكارها ، بسوقها...بباعة الصحف... بدكاكينها... بحيواناتها.
ومن بين كل هذا كانت هناك مقهى كبيرة تدعى قهوة حسن أو «قهوة السبع» ولم يكن صاحبها«سبعاً»!، انما نسبة لتمثال أسد يتوسط جانبها الصيفي، ويستظل شجيرات صغيرة وأصوات عذبة للماء ينساب ويترقرق هنا وهناك فكانت بحق أجمة صغيرة رقيقة.
كان يدير المقهى قريبي ويدعى «حسن» يساعده في ذلك اخوه الاكبر «سلمان» و حسن هذا رجل صموت متكتّم لا يتحدث الى أحد إلا في الحالات الخطرة ويتندر عليه الكثير من زبائنه بأنهم لم يروا اسنانه يوما لأنه لا يضحك ويكمل تلك السحنة المتجهمة شاربه النازي.
وانه حين يدلف الى بيته القريب من المقهى جائعاً وقت الغداء، فأنه يجلس صامتا لا يستعجل احد ولا يكلّم احد ويخيّل للآخرين خصوصاً زوجته بأنه لو بقي اسبوعاً جالساً في مكانه ولم يجهز له الاكل ، فأنه سيبقى صامتاً على هذه الحال.
والى جانبه سلمان فهذا على العكس منه فأن الناس يرددون مستغربي «سبحان الله على هذا التناقض بين شقيقين»، كان سلمان رجلا ضاحكا لا أبالياً مستهتراً خليعاً أباحياً لا يؤمن بأي شيء،فقد وصف له الطبيب يوما لمرض الّم به ، ابرتين ، فأذعن ساخرا ليتولى امر زرقهما (صبار الأوتجي) الذي كان اضافة الى مهنة كي الملابس ، يجيد التضميد وزرق الابر

ببراعة ، حينها لم ينزوي سلمان في مكان مستور كما هو متعارف عليه، انما وقف في النصف الخلفي من المقهى، وسط الجمهور رافعا ثوبه كله الى الاعلى ليبدو عاريا تماما، مما احدث هرجا ومرجا وموجة هائلة من الضحك في المقهى، وصار الكل يدير وجهه او يهرول مبتعدا وسلمان غير مبالي حتى بعتاب او اقتراح صبار الاوتجي .

وكان سلمان يثير النكات والمقالب بين رواد المقهى وهو ما يغضب حسن دائماً، ولكنه يصمت لا لأن سلمان اخوه الاكبر ولكن لخدماته الكثيرة النشطة يضاف الى هذا فهو رمز المقهى واعلانها المجاني وكثير من روادها أنما يأتون ليشاهدوا «سلمان» !

وكانت أمسيات المقهى تضج بكل تلك الاجناس من البشر، وكان المعلمون في المكان المقدم واللائق ، وبالطبع يرتادها بين الحين والاخر رجال الحكومة.

كانت الافكار تتصارع والأيادي تشير مرفوعة فمنهم «الشيوعين» و «القوميين» و «الاخوان المسلمين»، المؤمنين والملحدين والنقاشات تحتدم وبعنف لكن دون عداء اذ كان الكل "وشاشيون" .××

وكان دكان للخياطة على جانب قريب من تلك المقهى ويبدو احيانا كأنه إمتداد لها أو صورة مصغرة لما يدور فيها من نقاش وبمواضيع مختلفة ، وكان هذا الخياط بارعا في الحديث متنوع المواضيع، وكان عواده كثيرون متنوعون ، فحتى رئيس بلدية الوشاش من بينهم وكذلك «مأمور المركز» فأنه يعطف ولكن بأحيان متباعدة وخصوصا في ليالي رمضان الساهرة أضواءها حيث العيد على الابواب.

والثابت منهم ثلاثة سيحتاج الحديث عنهم أياما كما يقال، احدهم طالب في كلية الطب والاخر حلاقاً والشاعر الذي أحاول أن ارسم صورة له هذا اليوم عسى ان اسميها صورة بعد هذا الزمن البعيد ، إذ بعد عقدين سينفض هذا الجمع «فالطبيب المختص» يهاجر الوطن تائباً الى غير رجعه ، والحلاق يسفر عنوة لشكوك حول عراقيته والخياط اقتيد ولم يعرف مصيره للآن.

ليس هذا فقط فأن جمعاً آخر سينفض فلا السينما ولا المقاهي ولا حتى باعة «فستق العبيد». ...الذين اختفوا فقد برع مقاولوا التخريب بأقتلاع كل ما هو أصيل وجميل في مدينتي وأجادوا أيما اجادة.

ولا يعرف هل كان لباعة فستق العبيد علاقة بالسياسة اولئك الذين كانوا من ثوابت المدن

العراقية بوجوههم الفاحمة واسنانهم البيضاء وكأنها اشراقة ، بالدخان الخفيف المتصاعد من تلك المناقل المغلقة العجيبة برائحة الفستق الدافئ وهي تدير الرأس.

كان الخياط نشطاً وكان دكانه مزدحماً ، وفي الكثير من الاحيان يدير الصراع وهو منهمك وراء ماكنة الخياطة، وكانت الاحاديث تدور حول السياسة والشعر والدين وكروية الارض ونادراً ما يمر يوم دون مطاردة شعرية وكان للخياط السبق في ذلك.
كنت أنا في العاشرة من عمري أو اكثر بقليل ، وكان هذا الدكان عائداً لأخي وكنت مساعداً له بأشياء صغيرة عديدة منها ما يتعلق بالمكواة او فتح بيوت الازرار أو كنس الدكان.
وكان من بين مهماتي الثابتة تقريباً، هو ذهابي الى بيت الشاعر«ملا يوسف الخالدي» ، الرجل المنحدر من مناطق الفرات ، واصطحابه في الساعة العاشرة صباحاً الى الدكان والعودة به في الساعة الواحدة إذ كان رجلاً بصيرا.

كان نظيفاً مهندماً، محباً هادئاً ، متهدجاً مؤثراً في كلامه وكان على ماأذكر مستمعاً دؤوباً للراديو..
كان شاعراً بهيئته المحببة بهدوءه بضحكته الخجولة برقة حاشيته بعقاله ، بكوفيته الداكنة بعينيه الجميلتين التي لا يبدو عليهما العمى... لم يكن له من صفات العديد من العميان إلا عماه ، اذ كان واثقاً قليل الحركة عندما يتحدث ، ربما راجع هذا الى أن عماه جاء في ايام كبره هذا ما اعتقده الان لأني لم أسال عن ذلك وقتها.
كان «ملا يوسف» اضافة لذلك ، ذا بداهة شعرية غاية بالدهشة فكان «يداري» أو يباري ببداهته اي بيت من القريض وبسرعه وبقوة وجمال ، وهذا نادر الحدوث فيما أظن...

وقائلـة مابال دمعك اسود
وإذ كان مبيضاً وأنت نحيل
فقلت لها جفت دموعي من البكا
وهذا سواد العين فهو يسيل

هكذا طلب منه أن يباري هذا البيت ، والمباراة تعني أن يترجم هذا البيت الى لون شعبي من

الشعر يدعى «الأبوذيه» .
حينها تململ ملا يوسف وبعد دقائق تحركت شفتاه:

دمعك ليش أسود نشد ويسل
جاوبته سؤالك يعلْ ويسِلْ
سواد العين هذا إيهمل ويسلْ
بعد ما خلّص دمعي ونشف ميه

في احد الايام كان الحديث محتدما وجادا حول موضوع لا أتذكره الآن، إذ دخل عليهم رجل يدعى «موسى الاعمى» كان رجلا مألوفاً بكوفيته المخططة بالاصفر وسترته السمائية الداكنة وعصاه وعينيه المبيضتين لقد كان ضريرا ايضا يجوب البيوت والدكاكين واحيانا يكلف باعمال شاقة لقاء أجر بسيط ، كأن يسلك مجرى مسدوداً أو يعمل الطين لرشق السطوح ، كان رجلا وحيدا وقد فقد البصر منذ طفولته وكان يجاهر بشكل خفي برجولته وقوته أملا باثارة أمرأة أو اثارة عطف اخرى.
وإذ دخل «موسى الاعمى» الى الدكان وكان الحديث محتدما، تحدث كعادته ضانا إنه فهم مايجري وكان تدخله وحديثه لا علاقة له بموضوعهم البته، مما أثار موجةً من الضحك والفكاهة منهيا الحديث كله.
وشأن العراقيين فأن لكل حادثه مثل يضرب «موسى كض السالفه من ....»
ومعناه ان «موسى» مسك مؤخرة الحكاية.
هكذا علق احدهم والتفت أخر الى ملا يوسف ماتعليقك ياأبا محمد؟ هكذا ينادونه احياناً، وكان ملا يوسف مرحاً مبتهجاً... فتمتم معيداً الكلام :

مُسِحْ بيها إيتفوّحْ من سرمها
وما نعرف سراها من سرمها
إجا موسى ولزمها من سرمها
وخلاها تفر من بين إيديــه

وكانت هذه الكلمات كفيلة بأن تجعل موسى الاعمى يدير ظهره مغتاضا متمتما لاعنا

ضارباً بعصاه وسط الضحك والاهتياج وطلب الاعاده...
وصارت هذه الابيات حديث الساعة وحزورة الموسم والملا يترجم الاسرار الثلاثة -نعم- هكذا قال- فالمسك يستخرج من سرة المها...
- هذا الاول ياملا
-نعم ، الثاني هومثلْ يقال للمرأه الجميله إذ تختلط طرائقها بطرائق أمها...

في ذات يوم أراد احدهم أ ن يتحدى ملا يوسف متلاعباً
- ملا يوسف ؟
-نعم . اجاب الملا
فأنشد هذا:
ألقي المسدس جانباً أو لست بالالحاظ تحرس
من عنده هذي العيون ليس يحتاج المسـدس
لم يهتز ملا يوسف كعادته ولكنه لم يكن مرتاحاً لهذا الشعر ، قد يكون السبب في المسدس الذي تكرر مرتين ، لا أعرف... انما كان يبدو انه متأثر ومنفعل من امرآخر فلم يحر جوابا.
كان في ذلك اليوم مهموما... مضطربا ومشغول البال يتمتم بين لحظه واخرى.... وبعد لحظات أنتبه لنفسه وقال :
-امهلوني هذا اليوم فأن بالي ليس معكم... سأباري هذا البيت سأباريه.

كانت أيام الوشاش ليست على مايرام كما هي حال الوطن كله إذ جرت مداهمات للبيوت هنا وهناك من قبل رجال الحكومة وكان من بينها بيت أخي الخياط ، أقفل الدكان بعدها عشرة ايام مما أثار سخطاً وإعجاباً واصراراً على زيارة الدكان وأتجهت الاحاديث إتجاها واحدا عن الاساطيل والحرب الباردة ، عن مصر وإيران عن المصالح والمؤامرات فكان ملا يوسف وسط المعمعة بكل جوارحه.

هالفتن كلها «يادولار»
منك يانحـس

هايمه العالم بحبك
سكارى ولا تحس

إفتنت كل الامم
وبينه متحاربة
الخاليه منك محزنه
والتكسبك مطربه
وتتهاوى فوك شخصك
كالذباب إعلى الدبس

طلقتك فاقت «يادولار»
على سلاح الجديد
تهتك وتفتك وترمي
بالرمي ترمي بعيد
حيث من لندن رموها
بلايه حس ولارعيد
وصابت «محمد مصدق»
والقته بنص الحبس

- سلمت ياملا ...! هكذا كانوا يهتفون .

وتهدأ العاصفه وتهدأ النفوس وتعود الحياة الى الدكان وتبدأ هناءة نسبيه جديده... ويستمر الحديث متفتحا... عارما و«ملا يوسف الخالدي» يتفجر ويناكد ويأتي بصيحات ويفكر باشياء لم يفكر بها احد، فتراه يشكك بنوايا شاعر قديم لأغنية شعبية شائعة:

يلماشيه بليل إلهلج حولي عدنا الليله
بعيد الدرب شيوصلج هوايه المسافه طويله

فهو يطعن بهذه الدعوة ويرد على هذا الداعي لتلك السائرة في الليل الى اهلها ، ويفضح نواياه بمرح وضرافه وشاعريه تتفتح لها صدور السامعين وتخفق معها قلوبهم فيقول:

يالماشيه بليل إلهلج
خفي الجدم وإمشي ولج
العازمج ما ينصحج
يمج يهفي بذيلـــه

هاي العزيمه محيله
والعازمج غايات إله
عندج موجد مكحله
وكصده يدخل ميله

وتنفجر موجه من الضحك والاعجاب والأشادة والتمني بأن تطول الجلسات ويعتصر هذا الرجل ويدون، ويلتفت احدهم مخاطباً الملا :

- ملا ماذا حل بصاحبة المسدس ؟

هز ملا يوسف يديه مستنكراً

-ياللنكته... من أين جئتم بهذا الشعر. لقد نظمت له في نفس الوقت وغصباً عني ولكن لم استطع أن اعلنه إذا احسست انه غير لائق في ذلك الوقت العصيب.

من جناها... من جناها
XXXجبح حرب الملامه من جناها
وما نعرف هندها من جناها
شلون عيون عندك من جناها
المسدس ما يحوجه لكل قضيه

الهوامش

×الفرشي
نوع من الطابوق مربع وعريض واقل سمكا منه كانت ترصف به البيوت وللآن فنحن نتذكر ونفاخر ببرودته وعبقه عندما يرش مقارنة بما موجود في هذا الوقت.

××الوشاشيون
كان من بين المنازعات والمناقشات تلك التي تحتدم بين انصار السفور انصار الحجاب ومنها ماحدث بين معلماً من انصار الحجاب اسمه "الحاج نجم" وموظفاً من انصار السفور يدعى "حميد" وكان هذا رجلاً مطلعاً ذكيا ساخراً وحينما يود ان يسخر ويتهكم فأنه لا يبدو عليه ذلك، وبتلك الطريقه اقترح "حميد" هادئاً جاداً كل الجد على "الحاج نجم" أن يفرض على الحيوانات التي تمر هنا وهناك ارتداء الملابس الداخليه وكان ظهور الحيوانات مألوفاً في ذلك الزمان فالخيل والحمير والابقار رائحه غاديه لاسباب وخدمات عديدة، وعندما التفت "الحاج نجم" مستوضحاً أردف "حميد" بمكر شديد الكتمان
-نعم السنا دولة اسلامية لم هذه الخلاعة لماذا لانغطي اعضاء هذه الحيوانات، عندها تكلم الحاج نجم" ساخراً وقد امتقع لونه-أن هذا لا يخطر إلا برأس "حشاش"

XXX جبح او تشبح :بمعنى اللعنة على تلك الحرب حسب اللهجة العراقية

الأمر الذي حدث
بالمصادفة وبدل عادتي السيئة

قال أبا عثمان عمر بن بحر رحمه الله:

"اللهم أنّا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحس، كما نعوذ بك من العجب بما نحس، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العيْ والحصر."

وقال الشاعر:

ما ندمت على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

أنا رجل فوق الثلاثين بقليل، حياته بسيطة مريحة هادئة نسبياً، أملك بيتاً لا بأس به، وحديقته لا بأس بها أيضا وزوجة جميلة قانعة، وثلاثة أولاد إلا أني تعودت السهر بشكل دائم خارج البيت، وكان هذا أمراً سيئاً وأنا أعلم ذلك خصوصاً بالنسبة لزوجتي ولشقيقي الذي يسكن معي و(المتمومن) حديثاً. إلا أن أمراً بسيطاً حدث بالمصادفة قد بدل تلك العادة السيئة.

والحقيقة هما أمران حدثا في يوم واحد، إلا إني سأسمي ذلك حدثاً واحداً.

وها أنا منذ مدة أعود إلى البيت مساءاً، ولا أخرج بعد ذلك وأصبحت لا أرى رفقائي الذين كنت أسهر وإياهم، إلا مرة واحدة في الأسبوع. وكان أغلبهم أخوة ثرثارون وليسوا أصدقاء. وكل هذا بسبب تلك الحادثة البسيطة التي وقعت بالمصادفة وبدلت عادتي السيئة، والتي كنت سأرويها وتنتهي القصة كما يقال. وحتى لا أثقل على قارئي إلا بسطور قليلة، ذلك إني كنت أود أن... أو أدعي الود... وأحاول أن لا أكون ثرثاراً مثل أخوتي الثرثارين

الذين سأتحدث عنهم فيما بعد لعلاقة ذلك بالأمر الذي حدث بالمصادفة وبدل عادتي السيئة. وأن أكون ثرثاراً أو غيره، فكما هو معروف أن هذا الأمر يجب أن يبت به الآخرون لا أنا، لذا لا أعلم فيما إذا كنت ثرثاراً أم لا.

فالثرثرة لها أشكال عديدة، ولها أبطال متنوعون... والثرثار هو الذي يريد أن يوصلك إلى أمر ما إلا انه لا يترك هامشاً ولا سبيلاً ولا طريقاً لا علاقة له بموضوعه، إلا ويأتي عليه. مع ذلك قد يكون هناك ثرثاراً محتملاً إلى حد ما، ولكن هناك ثرثرة لا معنى لها بالتمام. في يوم أراد أحدهم أن يخبرني بأنه قصد موظفاً كبيراً بتوصية، وكانت له حاجة، واستقبله الموظف حينها وقضى حاجته، وهذا كل ما في الأمر. إلا إنه بدأ حديثه قائلاً: إنتظرت في غرفة سكرتير الموظف الكبير زهاء ربع ساعة... بعدها أدخلني عليه، وسلمت وأخبرته أن فلاناً يخصه بالسلام وهو الذي أرسلني إليه... حينها رحب بي ترحيباً خاصاً، ودعاني للجلوس، وضغط زر الجرس ودخل الفرّاش وطلب منه أن يجلب شاياً، ووضع الفراش استكان الشاي أمامي فجعلت أخوطه... وأخوطه... بعدها نظرت ووجدت أنه لا زالت هناك في قعر الإستكان حبات من السكر غير مذابة، فما كان مني إلا أن عدت أخوط... وأخوط... وأخوط. وظل صاحبنا هذا "يخوط" إلى نهاية تلك الحادثة السخيفة.

وإني إذ أوشكت أن أتحدث عن الأمر الذي حدث بالمصادفة وبدّل عادتي السيئة فذلك تجنباً "للخوط" وقد يعتبرني البعض أني بدأت "أخوط" فعلاً.

لكني حقاً أكره الثرثرة لاعتقادي بأن الثرثار لابد أن يكون شخصاً مملاً إذا قدر أن يكون بالقرب منك، ذلك أن أفعاله الثقيلة الزائدة لابد لها من مسوغ وتبرير، لذا فأنه يزهق روحك في كل الأحوال. والثرثار غالباً ما يؤمن بالخرافات التي هي جزء من بضاعته. وغالباً ما يكون ناكثاً لعهوده، ناكراً لها، ويأتي بالضد مما قاله بالأمس. والثرثرة يعزيها البعض للكبت القديم، ويعزيها آخرون لإنعدام الثقة بالنفس حيث أن وقودها الذي يديمها هو الكذب...

إلا أن هناك ثرثرة موضوعة بعناية ومضبوطة وتنطوي على خيال وظرافه، رغم أنها مؤلفة وغير صحيحة... وهناك من اشتهر بهذا النوع من الثرثرة واصبح من تراثنا الشعبي العزيز. أحدهم رجل يدعى "إبراهيم عرب" كان رجلاً واسع الخيال، ويتحدث عن بطولات ومغامرات وفنتازيات عجيبة تحدث له، ويقف من مستمعيه موقف "القصخون"... وعندما يتحدث فأن

أحداً لا يجرأ على مقاطعته أو سؤاله إذ كان رجلاً قوياً مخيفاً... ولندعه يتحدث عن إحدى صولاته وجولاته قال:

- دعينا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كان ذلك في عهد "نكسون" ووصلت إلى هناك... كيف وصل "إبراهيم عرب" إلى أمريكا، وبأي طريقة، لا يحق لأحد سؤاله، ويستطرد:

- دخلت إلى البيت الأبيض، ونهض "نكسون" حينها رافعاً ذراعيه مرحباً :!أين أنت يا إبراهيم لم هذه الغيبة؟ لماذا تتركنا وحدنا وسط المشاكل؟ هذه فيتنام وغيرها... فقلت: إن لي مشاكلي أيضاً يا صديقي... وجلسنا نتحدث، وتغدينا... بعدها خرجنا من البيت الأبيض بسيارة مكشوفة، أنا و "نكسون" في الخلف، والسائق وإلى جانبه مرافق بالزي الرسمي... وكان الشعب الأمريكي قد خرج مرحباً عن بكرة أبيه... حينها اقترب صحفياً أمريكياً من المرافق الذي بجانب السائق سائلاً إياه:

- من هذا الرجل الواقف إلى جانب "إبراهيم عرب"؟ مشيراً إلى "نكسون"!

وحالما يلتفت احد منا فسيرى الكثيرين من هؤلاء، وسيرى تنوعاً في هذا "الفن العجيب ". فهذا رجل يدعى "أبا داليا" كان رجلاً متزناً إلا في أحاديثه، إذ كانت عجيبة وغير متزنة تماماً... ففي يوم من الأيام حل عليه صديقاً وبصورة مفاجئة... هكذا بدأ "أبو داليا":

- ولم يكن لدي ما يمكن أن أقدمه لضيفي وقت الغداء وتحيرت إلا أنني صليت ركعتين ودعوت من الله أن ينقذني من هذه الورطة... ولما فرغت من صلاتي فتحت صنبور الماء الذي كان يتوسط فناء الدار، وإذا بسمكة من نوع البني تنزلق من الصنبور مع الماء... وتبعتها أخرى وأخرى وإذا بعشر سمكات يتكومن وسط الحوض. فحمدت الله. وغديت ضيفي ووزعت الباقي على الجيران.

وهذا النوع من الثرثرة على انه ملئ بالكذب واللامعقول، إلا أنه غير ضار وغير مؤذ، بل أنه مفيد بحال من الأحوال... حيث ينمي ويرفد أدب النكتة التي هي مرآة لأحوال الناس.

إلا أن الطامة الكبرى عندما يكون الثرثار رئيساً اوحاكماً. وقد سمعت عن حاكم لدولة في زمن من الأزمان، وكان بحق نموذج لكل حاكم ثرثار. وإنه بحكم كونه حاكماً لتلك البلاد ومسيطراً على أحوال شعبها فأن ضرره يكون فادحاً بجسامة منصبه.

كان ثرثاراً مفلتاً لا يلويه شيء ولا يقف بوجه ثرثرته وأوامره الهوجاء أي رادع إذ أحاط

نفسه بحفنة من العقول التي لا عمل لها سوى مد الرؤوس والإصغاء، وأن أبدعت فأنها تضيف إلى إصغائها نعم... نعم... وكان هذا الحاكم ثرثاراً حتى بسلوكه، فهو دائم الظهور، دائم الحديث، متنوع المظاهر، متنوع الوقوف، متنوع الجلوس... موزعة صوره في كل شارع وكل ميدان. وتسجل ثرثرته وتذاع على الناس عنوة بمناسبة، ودون مناسبة... وتطبع خطبه الطويلة المملة بكتب أنيقة مكلفة رغم أن أحداً لا يقرأها، وحين يخطب فهو يلعن هذا الحاكم ويشتم ذاك ويعيب على رئيس لا يعجبه... ويهدد آخر...

وقد كلفته ثرثرته تلك ثمناً باهظاً، وكلفت شعبه كذلك، إذ اجتمعت عليه أقوام مختلفة ونتفت ريشه كما نتفت القردة ريش الغرابة في قصة "ابن المقفع"... ولمثل هذا الثرثار والذين على شاكلته ليس هناك مكان في التاريخ إلا كيس نفاياته ، فصفحات التاريخ الكثيرة نجدها قد ملئت بالحديث عن المقلين والموجزين، المفجرين المعاني بأقل الكلام، من أعراب مجهولين إلى ولاة ، إلى أنبياء أو ثوار خارجين...

أن خشيتي من هذه الإطالة تزداد شيئاً فشيئاً، وهي التي تدفعني للحديث وبسرعة عن الأمر الذي حدث بالمصادفة، وبدل عادتي السيئة. وإن عدلت في نفس الوقت عن رواية تلك الحادثة فمرة أخرى، كرهي أو الادعاء بالكره للثرثرة والاستمرار بفضحها وتذكري لثرثرة سيئة أخرى لكنها ليست بسوء ثرثرة الحكام، وهي ثرثرة النساء، إذ أن ضررها محصور بأنه يجلب قلة الاحترام... والإسفاف واللا إنتباه. رغم ما يسببه أحيانا من إيقاع الشقاق والكره بين السذج الذين يصغون لمثل تلك الثرثرة. ولكن الإطلاق بأن المرأة ثرثارة بطبعها، ما هو إلا رأي فيه شيء من المبالغة واللا دقة... فالمرأة لها أعذارها والبيت هو الذي قلّم أظافرها وشوش فكرها.

وقد عرفت رجلاً قضى سني شبابه في السجن، وكان هذا لا يكف عن الحديث الفارغ ويعيد القصة نفسها مرات ومرات وبلا وعي منه. وحتى الشعوب حينما تقهر وتكبت تكون الثرثرة هي ملاذها وعلتها في الوقت نفسه.

وان وجد قارئي بأني أطلت تأجيل رواية الحادثة التي وقعت بالمصادفة وبدلت عادتي السيئة، فذلك بسبب حقدي الشديد على الثرثرة والثرثارين! رغم اعتقادي بأن الثرثار لا يشعر بأنه ثرثار وتراه غير محب للاستماع والإصغاء... لذا فهو قليل الإستفادة، وينجم عن ذلك بأن آراءه واجتهاداته غالباً ما تكون غير مسؤولة، وأحيانا محرفة... والأخبار التي يسمعها

يقلبها على هواه وحتى في قراءاته فيما لو كان قارئا فأنه يستفيد إستفادة مشوهة وتراه لا يتوخى الحذر في الحديث عن المسائل الكبيرة والخطرة. كما كان يجب عليّ أن أتوخى الحذر في الحديث عما أعتبرهم ثرثارين مشهورين...

بمناسبة الحديث عن القراءة وقبل أن أحكي عن الأمر الذي حدث بالمصادفة وبدل عادتي السيئة. والحديث عن كتاب مشهورون... فكتابة مثل "شارع السردين المعلب" وأخرى لكاتب أمريكي شهير إن هي باعتقادي إلا ثرثرة أكيدة وغير مضبوطة، وتختلف عن ثرثرة أخرى لكاتب أمريكي لاتيني في بعض ما قرأت له خصوصا رواية "في ساعة نحس" فهذا مولع بملاحقة شخوصه حتى في المباول...رغم إنه في مواطن أخرى ثرثار جموح خيالي وجاهد لأن يفضي إلى ما يريد.

وثرثرة مشهورة أخرى لكاتب مشهور آخر في رواية "السأم" مثلا فأنها ثرثرة مملة. وقد وضع فيها الجنس موضع الصدارة كما يقال... إلا أنها مليئة بالإعادة والدوران والترف الذي يثير "السأم" والانزعاج.

ومادمت بصدد الكتاب والكتابة والثرثرة تلاحقني فأني أنظر لكل اثر فني عظيم نظرتي إلى جوهرة ثمينة تومض في كل مرة بلون جميل خاطف... كذلك الأثر الفني فأنه يبرق ويومض كلما نظرت إليه من جهة فتارة تراه خياليا وأخرى واقعيا ومرة تراه طبيعياً وأخرى غرائبيا محلقاً وإنني أجد الألوان تلك في معظم الأعمال الخالدة ومنذ القدم. وأجد السريالية موجودة حتى عند الشعراء الإغريق وأجد كذلك في رواية "عمال البحر" لمحات مما سماه البعض بالمدرسة الجديدة للقصة القصيرة.

وقد تزعم ذلك ثرثار وثرثارة من فرنسا وما أكثرهم في تلك البلاد ، والثرثارون أضروا كثيراً ببريق تلك الجوهرة عندما حاولوا أن ينتزعوه، وذلك مثلما حاول ثرثار آخر أن ينتزع السريالية من منابتها الكثيرة، ويحملها وحدها ويتبناها وحدها وينظر لها ويمذهبها... وأنك ما أن تمذهب الشيء فأنك تقتله وتبتذله. ولكن هذا والعياذ بالله شأن "ثرثاري".

وأن إعتقاداتي تلك عن الكتاب تنفلت وبلا رادع لتصور لي أن رواية "المراهق" للكاتب العظيم "دستويفسكي"إن هي إلا محض ثرثرة صافية.

وأني إذ وصلت إلى هذه النقطة وجدت بأنه كان لزاماً عليّ أن أتحدث عن الأمر الذي حدث معي وبدل عادتي السيئة، قبل أن "أخوط" بمواضيع لا علاقة لها. إذ ما معنى... ومن أنا لأعطي آراء وترهات عن كتُاب كبار مثل أولئك؟ لو لا إنني ربما أردت وبشكل خفي أن

أبين لقارئي بأني رجلاً متشعب القراءات واسعها... وهذا هو شأن الثرثارين إذ ما أن يصبح الحديث فكرياً أو حياتياً حتى ينهال عليك الثرثار بذكر الأسماء الرنانة لكتاب كبار أو فلاسفة.

وكان من بين تلك الرفقة الثرثارة التي كنت أسهرمعها واحداً من هؤلاء الذي طالما انهال علينا بالعناوين والأسماء والكلمات الكبيرة الفارغة.

وكان من بينهم أيضاً ثرثار مغرض وهذا النوع عادة ما يثرثر بهمس منزويا بشخص واحد ولا يرتفع صوته إلا بعد أن يكون برفقة إثنين أو أكثر وكان بينهم ثرثار ثالث وهو شخص عزيز إلى نفسي وكان رجلا مثقفا ويكبرني بسنين، لذا كنت أكنّ له كثير من الاحترام رغم المشادات التي تحدث أحيانا... ورغم إنه يعتبرني على ما أعتقد غريم له في الحديث ، ذلك لمجادلاتي السخيفة وإياه إلا أن ذلك لم يمنع الود والاحترام الذي كنا نتبادله... لولا ساعة الشيطان التي حلت بيننا ذلك اليوم وعكرت صفو مياهنا.

إذ بينما كان مسترسلاً بالحديث أتى على خبر عن أهل "الحله" وهو أنهم لا يأكلون "الفجل" معللاً ذلك بأن أحد ولاتها في زمان غابر كان يعاقب رجالها عقابا غريبا وهو وضع رؤوس «الفجل» في أدبارهم لذا فأن أهل هذه المدينة قد حلت وترسخت لديهم عقدة «الفجل» ولعنته ولم يأكلوه من حينها.

وإني إذ رأيت هذه الرواية حسب إعتقادي غير صحيحة وسخيفة ,ذلك إن أهل "الحله" غير بعيدين عنا وصادف أن عرفنا الكثير منهم ومن بينهم كذلك أصدقاء لنا ولم نلاحظ عليهم هذا الأمر يوما.

وما أن واجهت صاحبي بتلك الملاحظات حتى إنبرى شاتماً ولاعناً اللحظة التي عرفني بها متهماً إياي بالخبث والتعمد بمقاطعته وتكذيبه، رغم أن إثنان أو أكثر كانوا من رأيي.

وقد جعلني غضب صاحبي الغريب المفاجئ أشعر بالحرج والسخافة والازدراء من كل شيء فلملمت أغراضي وخرجت من عندهم مردداً قول الشاعر :« ما أن ندمت على سكوتي مرة... ولقد ندمت على الكلام مرارا ».

ووصلت إلى البيت مبكراً على غير عادتي وكان ما حدث، بداية الأمر الذي بدل عادتي السيئة. وكان رجوعي إلى البيت في ذلك الوقت المبكر لم يثر أي تساؤل في بداية الأمر إلا أن التسائل والعجب الممزوج بابتسامة خبيثة من قبل زوجتي بدأ بعد أن غيرت ملابسي إذ

كان هذا إعلاناً بنية البقاء في البيت هذا اليوم، وكنت أشعر بما يشبه الصبيانية والحرج وأنا مشغول الفكر بغضب صاحبي المفاجئ والصورة العجيبة التي حملها عني.

كنا نشغل الطابق العلوي من البيت أنا وزوجتي وأطفالي الثلاثة وكان أخي يشغل الطابق الأرضي وكنت لا أعرف ماذا أصنع إذ كنت منكمشا كطفل كسر شيئا ثميناً ولم يكتشف أمره، لولا أن حررني بعض الشئ تحلق أطفالي حولي وأنا أنزل سلم الدار واستقر بي المقام مع أخي وعائلته وأطفالنا وكان عليّ في البداية أن أتحمل تعجب أخي وغمزه... وكان التلفزيون يشغلنا أكثر الوقت، رغم أن كابوس تلك الساعة الشيطانية لا زال يجثم على صدري. وكان هذا سبباً لرغبتي الشديدة في الشرب الذي قد يزيل التوتر ويزيل ما أحسست به من وسخ واشمئزاز وفكرت أن أعد لي مائدة أشرب عليها في حديقة الدار إلا أنني عدلت عن ذلك، ليس تجنباً أو احتراماً لأخي، إنما لمظاهر التذمر الخفية المفتعلة التي لا بد أن يظهرها ذلك الأخ المتدين... إذ يكفيني ما أنا فيه من هم لذا وطنت نفسي أن أقضي بعض الوقت وأصعد إلى غرفتي لأشرب هناك، وقد يكون الأطفال قد نعسوا وناموا، وهمست برغبتي تلك لزوجتي التي كانت تبدو في غاية الراحة، بل والسعادة... والتي إختفت بعد ذلك ساعة كاملة، وأحسست أن هناك حركة غير عادية.

ودُعي الأطفال أخيراً بصوت أمهم المعهود، وهي تصيح من الأعلى، وتسميهم واحداً واحدا. وحثثتهم أنا أيضاً على الصعود. وكان من حسن حظي أن أخي وأمثاله ينامون مبكرين لراحة بالهم وخلو صدورهم وانعزالهم، وهم حتى حين يثرثرون فأن ذلك يحدث مع أنفسهم سواء كان تسبيحا أو صلاة... الخ... وليس كما نثرثر نحن.

وبعد أن انقضى شيء من الوقت نهضت وقد نفذ صبري وحييتهم وصعدت إلى غرفتي حينها أوقفتني دهشة كبيرة، وأنا أنظر إلى الغرفة وشغلني ذلك المنظر عن كل شيء إذ لم تكن هي نفسها التي أنام فيها كل يوم وحين أوصدت الباب كان برداً لذيذاً قد غمرني.

كانت الغرفة مضاءه بأنوار خافتة غاية بالذوق والدفء إذ... كانت ثمة نشرة ضوئية صغيرة قد كورت وعلقت على شكل عنقود، كانت فكرة مبتكرة حقاً، وكان يصدر منها ضوء دافئاً مؤتلفاً. وكان ثمة شمعتان جميلتان على المنضدة تتواثب أضواءهما على قطع الثلج التي وضعت في إناء زجاجي أنيق فاتح الخضرة... وثمة صحن كبير مليء بأنواع مختلفة من الفاكهة.

وقد أدهشني جهد زوجتي السريع وتساءلت مع نفسي فيما إذا كانت هذه الأمور من نشرة الضوء إلى الشموع والإناء الجميل في متناول يدها وبهذه السرعة، وهل كانت مهيئة لمثل هذه الليلة.

أخرجت زجاجتي وملأت كأسي وشربته بسرعة... وكان يصدر عن جهاز التلفزيون المفتوح أصوات ناعمة بعيدة، وكانت أضواءه التي تختلف من حين إلى حين تربك ذلك الجو الهادئ الجميل المتألق الذي كان يشمل الغرفة. وفكرت بإغلاقه، وعدلت عن ذلك لأنني فكرت أيضاً بأنه ربما سيشغلنا حين لا يكون ثمة حديث بيني وبين زوجتي التي لا زالت غائبة عني وخمنت بأنها قد تكون مستحية رغم أني لم أرى أي افتعال بتصرفها ذاك بل رأيت ذوقاً وفرحا واحتفالا لبقائي هذه الليلة وقضاء السهرة بجانبها.

وما أن دخلت حتى أضفت على الغرفة كلها عبيراً بارداً بقامتها، بثوب نومها الهفهاف الفاتح الخضرة ذو القطعتين، والذي وجدت أن له علاقة بلون أناء الثلج والذي لم ألاحظ يوماً أن لديها مثل هذا الثوب وأوشكت أن أشكرها بكلمة مناسبة إلا إنني رأيت أن الأنسب والأكثر تعبيراً واختصارا هو قبلة في عينيها ربما خوفاً لا شعوريا من الكلام.

وأحست هي بقليل من الارتباك رغم إنها دخلت واثقة رصينة غير مائعه ، وبسبب ذلك اقترحت أن ترفع صوت التلفزيون، ووافقتها صامتاً... وجلسنا نتحدث بكلمات قليلة وكنت كلما نظرت إليها تبتسم أو تضحك، وأنا أضحك معها ضحكة مجروحة... ضحكة بها مس من بكاء. وكانت تنظر إليّ وكأنها تقول هذا ما قدرت عليه.

وكنت أفكر وأنا أشرب بتلك البساطة والعمق في ذوق هذه الإنسانة وكنت كلما أفرغت كأسي تزداد بهجتي ويزداد قلبي حباً وحنواً... وكانت حين تنهض لتشغل نفسها بشيء كان يمشي معها ويرفرف مع ثيابها ما يسمى بالحبور.

وكان كلما مرّ الوقت أشعر بأن كل ما في الغرفة من الشموع إلى المرايا إلى صحن الفاكهة وأناء الثلج إلى زوجتي وأنا إلى السرير الذي أنهار ترتيبه، قد أصبحنا ممتزجين مؤتلفين مثل عنقود الضوء المعلق هناك.

الشوكة

ليس بالشيء الغريب أن يستحوذ أمر ما على رأس إنسان وفكره، وهو يتقدم بالعمر ، ويسيطر عليه ويكون هاجسه الدائم يأكل معه ويشرب كما يقال.

وسواء كان هذا الأمر فكرة أو شك أو كره أو حب أو إنتحاس... فأنه يلح ويترسخ ويعذب ويظهر للعيان كنوع من خفة العقل ومنحدرا نحو الجنون.

وسوف أسوق الدليل على ما أدعيته بمعرفتي بالناس حين يصيبهم مس العمر وأتحدث عن رجل عرفته عاقلاً ناصحا، أبيّاً، متعلماً مواظبا على القراءة والتثقف، إلا أن شوكة قد طعنته واستقرت وكبرت وتفرعت وبانت أنها شوكة الشك. إذ بدأ يشك بزوجته بعد أن اقتربت من الخمسين تلك الزوجة البارة الورعة... والتي لم يسمع لها صوت ، كما يقال.

وأخذ شكه ينمو ويزداد شيئا فشيئا وحرّم عليها الخروج حتى إلى باحة الدار. وحرم عليها أن تخرج للتسوق إلا وهو مرافقاً لها ملازما بخطاها... ويحدث أن يستيقظ منتصف الليل ليتأكد من وجودها وحين تدخل الحمام فأنه يظل يروح ويجيء عند باب الحمام ويتوقف أحيانا ليتنصت... ولقد عرفت هذه التفاصيل من مصادر وثيقة الصلة بتلك المرأة سيئه التوفيق.

وكنت على معرفة وثيقة أيضاً برجل طعنته شوكة غريبة شديدة الاختلاف إذ اشتد نفور هذا الرجل من الأطفال وتحول هذا النفور إلى كره متزايد بشكل ظاهر، وكبرت هذه الشوكة فأخذ يشتم كل طفل يصادفه ويلعن الذين خلفوه وكان لا يفتأ بملاحقة الأطفال حين يراهم مجتمعين يلعبون قريبا من داره، ولما كان الأطفال عنيدين مولعين بالمشاكسة والقسوة فقد كانوا يلاحقونه بدورهم ونشبت بعد ذلك حرب سجال بينهم وبين ذلك الرجل واشتدت أوتار تلك الحرب، وجن في الآخر جنوناً صافياً لا لبس فيه.

إلا إنني سأتحدث بالتفصيل عن رجل آخر وهوس آخر إذ استقرت في رأس هذا الرجل

فكرة أن يشتري حماراً... ولم تكن هذه الفكرة والقرار أخيراً فقرار صاحبي هذا باقتناء حمار كواسطة للنقل في هذا الزمن، زمن السيارات... لا ابتغاء لإثارة الانتباه... أو للطرافة... أذْ دبت هذه الفكرة فيه وتلبست... كما يدب الحب وينمو و يظهر ويترسخ ، بعد أن بدأ كرهه للسيارات وسائقيها يظهر ويشتد في رأسه، مما تسبب له من ارتباك، وتشويش... وبعد أن أخذ يحلم بعالم خال من الضجيج ، وبالأخص ضجيج السيارات... وكان يمنّي نفسه ويحلم بيوم واحد في الأسبوع تمنع فيه السيارات وتتوقف عن السير... ليرى ويتمتع بشوارع خالية هادئة وادعة ، ليس فيها ما يربك ويسبب الصداع والخوف... وإذ ترسخت لديه فكرة أن يشتري حماراً كان عليه أن يقلب هذه الفكرة من كل أوجهها رغم ما كان يرى فيها من بساطة وبراءة... إلى أن تحين الساعة التي سيجاهر بها ويعلنها.

لم تكن لديه مثلاً فكرة عن أسعار الحمير، ولا عن مدى نجاح مشروعه والسير به حتى النهاية وسط ما كان يتخيله من سخط زوجته واستهجان أولاده وسخرية الآخرين، خصوصاً على رجل مثله ليس فيه ما يثير الشكوك والاستغراب سوى ما كان يلاحظ عليه من اختلاف عن باقي رجال الشارع الصغير الذي يسكنه بأنه كان يخرج إلى عمله حاملاً كتاباً أو كتابين... ولم يكن هذا يعني أحدا أو يهمه في شيء سواء أكان يحملها من باب التبجح ؟ أو أنه يقرأها فعلاً وحتى أن أثنين من جيرانه يكرهونه لهذا السبب . ولكنه على العموم كان يحظى برضا الآخرين. وعلى الأخص قد فاز بحب العجائز وتقديرهن لتحيته الخاصة لهن ، ولاعتداله وحبه للسلام بين الجيران... هذا إلى أنه رجلا عاقل كما يبدو. وكان يعد من بين الرجال الأنيقين، والقلة الذين يعنون بهندامهم... كان هذا بالذات رأي النسوة حين يثرثرن بمجالسهن.

وكانت هذه الانطباعات التي يحسها نحوه عند الآخرين تصب في غير صالح مشروعه... ولكنه رغم هذه العراقيل والتي هي عقله وهندامه وحسن سلوكه، ما برح يمشي بهمة ويخطط لمشروعه المبتكر.

وأحس بميل وهوى غير عاديين نحو هذا الحيوان ورأى نفسه وبصورة لا شعورية يدافع ويغلف ويعدد مناقبه في كل مناسبة يأتي فيها الحديث عن الحمير... وحين جاءه أحد معارفه ممتعضاً شاكيا بأن أحدهم نعته بالحمار... فأنه انزوى به جانبا مقنعا إياه بما للحمار من مزايا، وسائلاً إياه:

- هل رأيت حماراً حاقداً؟ وهل رأيت حماراً حسوداً أو منافقاً؟ أما نظرت لتلك المشية

الأنيقة «النازكة»؟.

وغالبا ما يقابل كلامه ذاك بالضحك واللاتصديق إلا أنه أحس بصلة قربى بينه وبين أبناء ذلك الجنس الطيب تشتد يوماً بعد يوم.

ولكن أين يجد من يبيعه حماراً؟ تذكر أن الجمع الوحيد الذي شاهده آخر مرة كان في أيام العيد... إذ كانت مجموعة من الحمير قد تواجدت في مكان نصبت فيه ملاعب شعبية للأطفال وكان من بينها ركوب الحمير، ويديرها ويرعاها مجموعة من الصبيان الغير مهندمين... حيث لا يمكن الإستفادة منهم بأي حال من الأحوال، فهل ينتظر العيد القادم؟ إلا أنه ظلّ يسأل ويتربص لأي بصيص قد يعينه... وفي غمرة بحثه واستقصائه وهوسه، فوجئ بأمر لم يكن يتوقعه ولم يتخيله رغم أن المفاجأة قد أفرحته وأراحته... إذ قيل له أن سوقاً تزدهر كل يوم جمعة تباع فيه الحمير... والذي أدهشه أن هذه السوق تقام في بغداد، بل في قلب بغداد... وهي سوق قديمة راسخة في محلة تدعى «ن» وأراحهُ هذا الاكتشاف... رغم ما سببه له من متاعب كان يحرص أن يتجنبها على الأقل في الأيام الأولى لدراسة مشروعه. وهي سخرية البعض وتهكمهم وقلة ذوقهم ، إذ ما أن سأل أحد معارفه عن تلك المنطقة وفيما إذا كان بمقدوره أن يصطحبه إليها إذ كانت لديه سيارة حتى فوجئ هذا بالأمر وبما معقود عليه العزم فسري هذا الخبر كما تسري النار بالهشيم كأحلى وكأخر نكته.

فهذا ينصحه باصطحاب خبير بشؤون الحمير... وآخر يشير عليه أن يأخذ خرائط هذا الحيوان خشية أن تكون أجزاء منه مستبدلة... وآخر يتمنى أن يكون الحمار الذي سيشتريه أبن عائلة... وآخر يقترح أن يكون الحمار من نوع «دبل قماره» ليوصل أبناءه إلى مدارسهم.

وقد واجه كل هذه السخريات ببسالة وصبر نادرين، ولم يفاجأ بها إنما أزعجه بأن هذه السخرية جاءت مبكرة... وكان يود أن يكون ذلك عندما يشتري الحمار وينتهي كل شيء.

كانت تبعده عن يوم الجمعة أربعة أيام. إذ كان الخبر قد شاع يوم الأحد وقد أزعجه ذلك أيضاً . وأخذ يتخيل ما سيكون عليه ذلك العرض الصاخب للحمير وهي تعرض للبيع ويتنافس على شراءها الزبائن... وقد تكون هناك مزادات ومضاربات ومساومات وتنافس وتحايل ولعب على الذقون، كما يحدث غالبا في عمليات البيع والشراء.

لكن هل سيكون هذا مع الحمير أيضاً؟ وما وجه اللعب والتحايل؟ وهل يوجد حمار مغشوش أو أعوج أو أعمى؟ لابد أنه سيراه وسيمشي أمامه، ويتفحصه... ولكن قد يكون

الغش في عمره فهو لا يعرف ذلك بل ليس لديه أي بصيص من خبرة... إذن لابد من اصطحاب أحد من أهل الدراية في هذا الموضوع.

تذكر الحارس وكانت تربطه وإياه علاقة لا بأس بها ولكن هذا رجلا لئيماً نحساً وغير محب للمزاح... وخشي أن يطرده عندما يتصور الأمر ليس إلا نكتة! وكيف يقنعه وكيف يلين ذلك الرأس اليابس؟ وتوصل إلى أنه سيقنع ذلك الرجل بشكل ما... وهوّن الأمر انه قد لا يحتاجه فيما لو تجنب أن يشتري حماراً كبيرا ناضجا وقد إرتأى أن يشتري حماراً فتيا، أو صغيراً، ويرقبه وهو يكبر أمام عينيه ويتفهمه ويحبه... وخيّل إليه بأن هذا الرأي هو الأنسب وسيكون خياراً، مأمون الجانب ومحمود العواقب.

لكنه انتبه لما في هذا الخيار من سيّئات أيضا، إذ سيحتاج الحمار الصغير إلى عناية وصبر قد لا يتحملها أحد وقد تطول المدة... وقد تحدث أمور ليست بالحسبان كأن يقترب من الحمار الصغير أحد أبناءه ويرفسه وهو غائب، فستكون الطامة الكبرى وستكون هذه فرصة لزوجته المتبرمة بأن يسدل الستار على ذلك الفصل ، وظن انه توصل إلى حل لتلك المشكلة الصغيرة إذ تذكر أن لديه صديق يمتلك مشتلا صغيرا وسوق لن يضرّه ولن يضر المشتل وجود حمار صغير، بل قد يكون أحد مكملات الديكور لذلك المشتل بينما ذلك الحيوان الطيب الساهم ، مربوط إلى جانب... يحرك أذنيه ويهز ذيله بين الحين والحين.

وأعيت رأسه هذه الهموم وأزعجه بعض الشيء أن الأمر أخذ يتفرع ويتعلق شيئاً فشيئاً بأشخاص لم يكونوا في البال إلا أنه لم يهتم لذلك كثيرا.

تفحص ما بحوزته من نقود وأعاد حسابها ووضع نصفها في أحد جيوبه بل في الجيب الداخلي لسترته... وعندما دس رزمة النقود تلك حرص أن تستقر جيداً في قعر الجيب وربت عليها رغم أن ذهابه غداً للاطلاع ، وقد يجشم نفسه طلعة أو طلعتين لتكون عملية شراء الحمار أكثر ثباتاً ورسوخا. وكان يمارس في تأخره هذا نوعا من المماطلة واللا يقين.

وإنتابه شعور من عدم الثقة وهو يفكر ويستحضر وينتظر ويتطلع إلى من ينجده.

وقد شك في لحظة إنقشع فيها ذلك الهوس بأن الأمر أشبه ما يكون بتمثيلية فاشلة لما فيها من إفتعال وافتقار وقلة إقدام... ولما فيها من تفاهة الموضوع في زمن صعاب كهذا.

وقد سبب كل هذا تأخراً لأكثر من ثلاثة أسابيع بالأحرى ثلاثة جمع. كان توتره يزداد بمرور الوقت واخذ يفكر بتفصيلات وهوامش زائدة وغير ذات أهمية ولا مساس لها في صلب

الموضوع... كأن يفكر بارتداء ملابس شعبية يوم ذهابه إلى ذلك السوق... أو كأن يخشى أن ذهابه سيكون نهاية المطاف.

وتذكر أن هذا التعقيد والتردد لم يكن موجوداً أيام شبابه يوم كان محاطا بجمع من الأصدقاء الطموحين الضاحكين محبي الخوض بكل تجربة... وكان هو واحداً منهم يوم كانوا يقضون الليالي مع البقالين وأصحاب المزارع وسائقي سيارات الحمل، ذلك في سوق الجملة لبيع الخضار... السوق الذي كان النشاط فيه على مدار الساعة.

وكانوا في ذلك الوقت شباناً أنيقين مختلفين فخورين بتلك السهرات فهذا يرسم وهذا يسجل ملاحظات بين أناس شعبيين بعيدين عن وقار المثقفين والأفندية بتلك الدشاديش والأحزمة العريضة تشدها... بينما يتنهد من ثقل أكياس النقود وكان هؤلاء يتباهون وبمودة غاية بالصفاء بمجالسة أولئك الشبان المثقفين الغريبي الأطوار وتوطدت صداقات هنا وهناك صداقات متكافئة... ربما غريبة التكافؤ والتي ستبدو اليوم، وفي زماننا هذا علاقات ربما مشبوهة خصوصاً على شبان هواة جميلين مثلهم، مع أناس خشنين في عمر آبائهم.

وأخيراً فانه إتخذ قراراً لا رجعة فيه... أن يوم الجمعة القادم سيكون اليوم الفاصل بأنه سيذهب ويشتري الحمار وينهي كل شيء وليضع حداً لكل الوساوس التي أثقلت عليه أيامه وبالرغم من صلابة ذلك الحسم إلا أن قلبه بدأ يخفق كلما أزداد العد التنازلي لذلك اليوم وأحس كأنما هو مقبل على كارثة... وكان القلق والانقباض ملازما
له في أيامه ولياليه خصوصا من فكرة أن شجاعته ربما ستخونه في اللحظة الأخيرة ويعدل عن شراء الحمار يعدل عن حلمه البديع عن الوقفة الشجاعة التي كان سيقفها ضد هذا العالم المستفز الخالي من الإحساس وان هذا سيكون جنبا آخر سيضاف إلى سجله وقد تحول القلق والانقباض شيئاً فشيئاً الى رعب جعله ساهماً متبلداً طوال الوقت.

رغم انه وخلال ذلك يعاوده الإصرار ويمشي بطبيعة هادئة ، ولكنها متوجسة. حيث قصد محلاً لبيع القبعات واشترى قبعة متواضعة من الخوص... وأحاط الأمر بسرية تامة وهو يفكر بما سيكون عليه منظره بالقبعة وهو راكب حماره ، وكيف انه سيسلك طريقاً مختصراً إلى مكان عمله... ويحاول أن يتجنب السير وسط الشوارع المزدحمة، وانه سيخرج في البداية مبكراً وقبل طلوع الشمس ويأتي إلى بيته في الليل ليتجنب سخرية الآخرين وصياحهم... وكيف يحاول تجنب العراك داخل المنزل ويقنع أولاده.
وقد سببت هذه الأفكار والهواجس شروداً وانشغالاً عن كل ما حوله وسببت حتى إهمالاً

لنفسه ولعمله ولبيته كذلك.

وقبل يومين من حلول الجمعة المرتقبة زاره أخوه الأصغر ولم يفاجأ هو بتلك الزيارة ، إنما أنتبه إلى أن أخوه كان يتحدث إليه بود ملحوظ... وكان الحديث يدور حول العمل وصعوبة الحياة ، لكنه شعر بضيق وتمنى أن تنتهي هذه الزيارة الثقيلة ليختلي بنفسه وبأفكاره فالموعد آخذ بالاقتراب إلا أن أمراً قد حدث لم يكن في حسابه ولم يخطر بباله إذ بادره أخوه بالقول:

- هناك طبيب نفساني وهو صديق لي. لماذا لا نذهب إليه؟

حدق بأخيه برهة واختلط الأمر عليه:

- ولماذا أصطحبك إلى ذلك الطبيب؟

- لتعرض عليه نفسك وسبب اضطرابك ربما سيعطيك شيء من المهدئات.

أحس بانقباض وضياع ودوار قد أحاط بكل كيانه، وفكر أنه لابد أن حديثا قد دار حول سلوكه هذه الأيام وأحس أن كرامته قد أهدرت... وفكر كيف سيرد على هذا الوقح، وقرر أن يحسم الأمر بضربه بالكرسي الفارغ الذي كان بجانبه، إلا انه عدل عن ذلك خشية أن يزداد الأمر سوءاً بهذا التصرف وربما سيكون شاهداً ورجحاناً لكفة شكوكهم.

- هل رأيتني عرياناً هائماً على وجهي لتحدثني بهذه الوقاحة؟

- عفواً يا أخي وأنا لم أجئ لأثيرك؛ إنما كدرني سخرية أصحابك وتهكمهم عندما مررت إلى مكان عملك وحتى أنهم قالوا بأنك تنوي شراء حمار.

أحس هو بركلة أخرى قد وجهت إلى صدره... إلا أنه تمالك نفسه مرة أخرى:

- كنت أمزح معهم... أيريحك هذا؟ وهب أنني سأشتري حماراً فعلاً. فما العار الذي سيلحقك من ذلك أيها السيد المهذب؟ أو ترى أن راكبي الحمير مجانين كلهم!؟ ... اخرس لا تتكلم أنني أعلّمك وأعلّم خمسون غبياً مثلك ، وسأشتري الحمار رغماً عنك.

كان الحمار وموضوع الحمار يذكر لأول مرة في بيته لأنه تكتم عنه خصوصاً أمام زوجته ولكن قد يكون أخوه قد تحدث بها عن ذلك أيضاً. وصاح بوجهه:

- أغرب عني لا أريد أن أراك... وخرج من الغرفة لاعناً وموجهاً الكلام لزوجته وأولاده وأخوه:

- أنتم يا من تستنكفون من الحمار أنظروا إلى أنفسكم! انظروا إلى ثرثرتكم الفارغة انظروا إلى إختلاف قلوبكم.

كانت هذه الزيارة اللعينة قد أخلت بكل نظام تفكيره ، وأحس أن صخرة هائلة قد إعترضت سبيله فجأة... وكان كلما يتذكرها فأن أفكاره تجنح مثل سفينة قد عطبت من جانب إلا انه قرر أن يحيط نفسه بنظام وعناية مركزة، ويحتاط لنفسه وينتبه إلى حركاته حتى لا يعطي فرصة لهؤلاء الأوغاد أن يعبثوا به ويدفعوه نحو الجنون.

إستيقظ في اليوم التالي مبكراً واغتسل وارتدى ملابسه سائلاً زوجته عما تحتاجه من السوق فيما لو سنحت له الفرصة ، ونقدها بعضاً من النقود... وسأل أولاده واحداً واحدا، فيما لو كانوا يودون شيئاً... وخرج من البيت محتقراً كل من حوله من أهله إلى الجيران... إلى كل من يعرفه ولم يبق بينه وبين يوم الجمعة إلا يوم واحد وسينقضي هذا اليوم على أية حال، وسيذهب شامخاً ويشتري الحمار وسيرى الآخرون بأن قراره أن هو إلا صرعة من صرعات الزمان ، وإن حاول أخوه أن يضايقه أويعبث معه مرةً أخرى ، فسيلطمه على وجهه أو ستكون ردة فعله على ذلك الأرعن أمراً لم يخطر بالبال، كأن يرتب له تهمة تلقيه في السجن... كان على معرفة وثيقة برجل يأتي بالعجائب ولا يتورع عن فعل أي شئ لقاء حفنة من الدنانير واطمأن لهذه الناحية.

وسوف لن يجلب الحمار إلى البيت في الأيام الأولى ولابد من بعض التدريبات التي سيقوم بها بعيداً عن أعين المتطفلين والأغبياء.

كانت أيام الجمع كلها وكذلك أيام العطل ، أيام مملة مكروهة بالنسبة للناس المهمومين... وكان هو واحداً من بين هؤلاء. إلا ذلك اليوم فقد أطل بهيجاً ممتلئاً وهو يستعد للخروج بهمه غير عادية واستقل سيارة أجرة موضحاً للسائق الشاب موقع المكان الذي يبغيه وكان يتعجل الوصول إلا انه في نفس الوقت ينبه السائق إلى أخطار الشارع ويطلب منه التريث في السير إذ كان يخشى أن يحدث شيء يعرقل يومه السعيد ذاك.

وإذ ترجل من السيارة كان عليه أن يمشي اكثر من خمسين خطوة ليصل إلى ساحة أحلامه... وكان خياله قد تسارع في تصور السوق الذي سيراه وكيف سيجد الحمير مصفوفة تأكل البرسيم بينما يمر الناس يتأملونها ولا بد من وجود بغال كذلك.

إلا انه ما أن وصل حتى فوجئ بمنظر لم يكن يتخيله إذ وجد المكان مليء بالعربات الخشبية الكبيرة التي تجرها الخيول وهي محشورة متداخلة حتى أن الخيل كانت تتحرك

بصعوبة وخشي هو أن يهرس بين أخشابها المتسخة ولم يكن بإمكانه أن يكون صورة مرتبة وهو يمشي ببطئ وسط الصخب ذاك... وكان هناك أيضاً بعض الخيول المجردة يمسك بها أصحابها من أعنتها.

وكان مكان الحمير نائياً بعض الشئ عن دربكة العربات إذ كانت قرب جدار الساحة وكان عددها أقل بكثير من الخيل وراح هو يتأملها ماشياً مرة متوقفاً مرة أخرى... وقد شغله بعض الوقت منظر أصحاب تلك الحيوانات، فهو لم يرى مثل هذه الأشكال لا بالشارع ولا في مكان عمله... كانت وجوه تعبة غير مكترثة وشعور قد اغبرت واحترقت ألوانها بفعل الشمس... وبينهم كذلك أشكال وهيئات موغلة في القدم... ولاحظ من بين الزحام إمرأة جالسه تبيع الشاي والبيض المسلوق.

وأوشك أن يستقر رأيه على حمار أسود واضح النشاط والصحة، وهمّ ينظر بتحد شامخ إلى صاحبه الذي كان لا ينظر إلى أحد ولا إلى هذا الزبون الغريب... وبينما هو يلقي بتحية صغيرة كانت أعناق الكل قد اشرأبت في تلك اللحظة تتطلع إلى الجلبة والصياح اللذان حدثا فجأة! والتفت هو الآخر.

كان حصانا قد افلت من يد صاحبه جامحاً محاولاً الخروج والركض وسط الزحام، وكان إثنان أو ثلاثة يحاولون الإمساك به كانت الفوضى تسري كموجة صاخبة، وقد علا الصياح والصهيل واحتكاك العربات ببعضها لكل حيوان ردة فعله.

وفوجئ صاحبنا بذلك وفكر أن يتنحى جانباً إلى أن يهدأ الموقف ، إلا أن الحمار الذي أوشك أن يشتريه لم يمهله حيث كانت له ردة فعله هو الآخر، إذ رفع عقيرته ورفسه بينما هو يهم بالابتعاد صارخاً صرخة واحدة وساقطاً على الأرض بقوة، وقد توقفت أنفاسه وهب إلى نجدته إثنان من الشباب ذوي الهمة، وسحباه خارج الساحة.

وأخذ يتنفس بسرعة وصعوبة وأحس أن شيئاً يخترق رئته اليسرى واستطاع بين ذلك أن يسمع كلمة المستشفى أكثر من مرة وجيء بسيارة واصطحبه الشابين الذين كثير ما يصادف أمثالهم في مثل هذه المواقف الصعبة.

كان هو قد فتح عينيه وقد شحب لونه شحوباً شديداً إلا أنه لم يستطع أن يجيب حين سأله أحدهم وكان يمنعه عن الكلام هذا الشيء المغروس في صدره من الجهة اليسرى... وعدا هذا الألم الذي كان يمزقه فأن ناراً أخرى كان يكتوي بها ناراً ألهبت بلعومه وعصرت قلبه، وود

لو أنه يستطيع الكلام لا لشئ، فقط ليخبر الطبيب أن
سيارة قد دهسته وليس حماراً... ربما خوفاً من الفضيحة أو ربما ليبرئ ساحة الحمير إلا أن
دمعتان قد انسابت من عينيه وهو يشيح بوجهه عاجزاً كل العجز.

الوحش كراز

لكل شيء حسابه في الحرب... لكل الأخطار... لكل الصعاب... لكل الموانع... للبرد، للجوع، للغرق، للأسلاك الشائكة... للكمائن، للألغام، للأسلحة لبدعها ، للإسناد بقوة العدو... للخطأ في التقدير.

وقد حدثنا التاريخ أن سبباً واحداً من هذه الأسباب قد أودى بحياة الآلاف من البشر، ودمر جيوشا بأكملها... فكل هذه الأمور يجري تحسبها والاحتياط لها... فيما إذ كان القائد العسكري حريص على أن يكتب النجاح لمهمته فيما لو فكر أن يهجم أو يثبت ويصمد بوجه الهجومات المضادة.

إذ أن حساب هذه الأمور وتجنب أخطارها، هو تجنب للخسائر التي قد تحدث في صفوف مقاتليه الذين هم عماد مسيرته الشاقة.

إلا ما حدث معي... إذ لا يمكن لأي قائد فذ أو أي منجّم في التاريخ العسكري كله أن يتنبأ ويتجنب الكارثة التي حلّت بسريتي، وبجنودي عاثري الحظ والتي أطاحت بي وبمنزلتي كضابط متميز.

كنت آمرا لسرية تجسير، ومهمة هذه السرية هي إقامة الجسور العائمة في حالة وجود عوائق مائية، ويتكون هيكل السرية من مجموعة سيارات تجسير عملاقة تدعى «كراز» وكذلك مجموعة من الزوارق وآليات للحفر وتسوية الأرض. ورافعات شوكية وسيارات صغيرة أخرى. ومعظم هذه الآليات الموجودة هي لخدمة ولتكملة المهمة التي تقوم بها سيارات التجسير العملاقة، أو لتمهيد الطريق لها.

وكانت «كراز» على هولها وقبحها فهي تتمتع بمزايا عجيبة فبالإضافة إلى ضخامتها لما تحمله من عبء إذ تحمل جزء من جسر... وهو جسم حديدي مكوّن من أربعة أجزاء مشدودة

إلى بعضها وكأنها تابوت ويدعى «البانثون» كانت تتمتع بمحرك عملاق هو الآخر ولها من القوة والصلابة والسلاسة والنعومة في الاشتغال ما يندر وجوده في أحدث السيارات وأعتاها... وستكون تلك المواصفات هي السبب في المأساة التي حلت بسريتي!

ورغم هذه الكفاءة التي تتحلى بها «كراز» فكان لها شكلاً ينم عن وحشية في ذوق مصممها إذ كانت مكفهرة... حجرية، وكأنها ساحرة عجوز آتية من زمن غير هذا الزمان. وكان يحلو لبعض الضباط المرحين أن يدعونها «الآنسة كراز» لما يتوفر لها من خدمة وحماية... سواء كان ذلك خلال حركتها وفعاليتها أو في هجعتها وسكونها. إذ كان يعمل لها موضعاً كبيراً بواسطة الحفارات تدس مقدمتها فيه تحسباً للغارات الجوية... وكان موضعها منحدراً مسلوباً لتستطيع الخروج راجعة للخلف بسهولة.

وكان ملاّك تلك السيارة جنديان أحدهم سائقها ، والآخر ما يعرف بـ« الجسار» وهو الذي يقوم بوضع المسامير الكبيرة وشد الحبال عندما ينزلق «تابوت البانثون» ذاك وربطه بالبانثونات الأخرى ليتشكل الجسر المراد تشييده.

وكان مقدم السيارة من السعة بحيث يمكن أن ينام فيه شخصان وبشكل مريح... السائق قرب المقود والى جانبه «الجسار» واعتاد السائق خصوصا في الأيام الباردة أن يستيقظ قبل الفجر ويمد يده تلقائيا، وهو شبه ممدد إلى مفتاح السيارة بعد أن يحرك مغير السرعة بحركة غير ملحوظة ليدير المفتاح وتشتغل السيارة ليشتغل معها جهاز التدفئه ويرجع متدثرا محاولا النوم و سواء نام بعد ذلك او لم ينم ، فأن الاثنان السائق والجسار ينعمان بالدفء بعض الوقت لينهضا بعد ساعة يهيئان للتعداد الصباحي بعد ان يحلقا ذقنيهما وهم داخل السياره حيث الدفء ويرتديان ملابسهما، وكان هذا الامر يتكرر كل يوم من الاستيقاظ المبكر الى ادارة مفتاح التشغيل.

وبينما كانت الحرب على اشدها كانت سريتي بمنأى عن النار والخطر، وكان أفرادها يعدون من المحسودين المحظوظين، اذ كان المكان الذي تتجحفل فيه السريّة على حدود مدينة بعيدة عن الخطوط الامامية ، سوى خوف قليل من حدوث غارة جوية وهذا لم يحدث ، ذلك ان مهمات هذه السرية على خطورتها فأنها نادرة ومتباعدة .

وكنا نعسكر على مساحة واسعة من الارض إذ كان عدد سيارات التجسير «كراز» يقترب من الخمسين وهي موزعة متفرقة ومنتكسة في مواضعها، والاليات الاخرى متباعدة متفرقة

هي الاخرى وثمة حانوت من الصفيح ومواضع كبيره للضباط تعلوها الخيم وكذلك موضع كبير كان بمثابة بهو للضباط وخيام للجنود موزعة هنا وهناك وموضع صغير للذخيرة الخفيفة .

كان الجو باردا وقاسيا وهادئا في ذلك المساء عدا ماكان يحدث في الحانوت اذ كان جنود السرية مجتمعين هناك وهم في هرج ومرج وفرح واهازيج احيانا .

وكان قسم منهم ينتظرون التوقيع على اجازاتهم الدورية وكان من بين هؤلاء المنتظرين احد سواق كراز وكانت اجازته هي اجازة الزواج وكان هذا هو سبب الصخب الذي يحدث في الحانوت فهم يباركونه ويتندّرون عليه وماذا سيفعل بأجازته ويستحثونه أن يرفع رؤوسهم ليلة العرس وكان احد الجنود منهمكا بترتيب قطع الحلوى في صينية متوسطة الحجم خارجا بها متوجها الى خيمة الضباط.

في الساعه العاشره ليلا هدأ كل شيء فالجنود الذين كانوا ينتظرون اجازاتهم أقلتهم سيارة عسكرية الى المدينة وإنسحب الباقون الى خيمهم وسياراتهم ومن بينهم الجسار ، الرجل الريفي الذي سينام في السيارة وحيدا هذه الليلة وكان يفكر برفيقه السائق المجاز والذي سيتزوج بعد أيام.

كان الفجر غير بعيد إلا ان الظلام لازال يخيم على المكان حين استيقظ الجسار وبحركة آلية أتكأ على احدى يديه وأراد ان يقلد صاحبه ويفعل ما يفعله السائق كل يوم ولم يكن ذلك أمرا صعبا حسب ما بدا له لينعم بعض الوقت بالدفء فمد يده الى مفتاح تشغيل السياره ، ولم ينتبه ولم يفكر أو يتذكر ماكان يفعله زميله بمغير السرعة ! فأدار المفتاح وكان مغير السرعة مهيأً للحركة نحو الخلف واشتغلت السيارة وهدر محركها . وهمّ هو ان يغطي رأسهُ ويعود للنوم ، ولكنه احس ان السياره قد إهتزّت .. فأنتفض مزيحا الغطاء عنه برعب ورأى ان السيارة تسير متباطأة نحو الخلف!

كانت «كراز» قد انتزعت نفسها وخرجت من الموضع راجعة مثل حيوان اعمى كان في سبات ولم يعرف «الجسار» وسط الخوف والارتباك ماهو فاعل انما انصب همه الى ان يخرج من السيارة بأية صورة . ولم تمضي لحظات إلا وهو يفتح الباب ويقفز الى الارض واصطفق الباب خلفه منغلقا ، والذي لا يمكن فتحه الا بواسطة المقبض الذي تُرك في الداخل .

كان يصرخ ويصيح بأن السيارة تسير الى الخلف ورغم علو صراخه ومرارته وارتباكه وتقطعه

! إلا انه كان يبدو صراخا عبثيا في ذلك الهدوء والظلام البارد.
وأنتبه الجسار الى ان السيارة متجهة نحو كوم من الاعمدة الخشبية الطويلة وفكر ان هذا سيوقفها وتوقف هو عن الصراخ لحظات مترقبا متوجسا جاثيا على ركبتيه إلا ان امله قد خاب عندما ديست الاعمدة وتهشمت وتطايرت وكأنها اعواد الثقاب امام هول اطارات كراز الجبارة وضخامتها فعاود الصراخ وبقوة واخذ يركض قبلها وصراخه يعلو ويشتد ويتحول الى بكاء عندما رأى ان السيارة متجهة نحو الخيمة الكبيرة والتي كان ينام فيها الكثير من الجنود منهم السواق الاحتياط وجنود القلم وآخرين واتجه الى الخيمة، وهو يضربها صارخا ببعضهم «استيقظوا ان السيارة تسير الى الخلف ». كان احد الجنود النائمين في الخيمة قد استيقظ على الصراخ إلا انه انقلب على جنبه متثاقلا مفكرا بأنه لا بد ان احدا قد جن في هذه اللحظة.
كانت كراز قد جذبت أول فريسة لها وداست حاشية الخيمة التي انهارت وسمعت بعدها قرقعه العظام وهي تهرس تحت ثقل الاطارات العمياء وتمر على السيقان والاكتاف ورؤوس الجنود الذين كانوا ينامون متقابلين ومتفرقين واصطبغت الخيمة ببقع الدم هنا وهناك وعلا من تحتها الصراخ والانين وطلب النجدة ، كان ثلاثة أو اكثر قد نجوا في هذه الخيمة ومن بينهم نائب ضابط والذي أخذ يهرول صارخا محذرا الضباط والاخرين.

كانت كراز تتهادى كعملاق مخبول غير مبال وكانت تتجه الان نحو الحانوت الذي كان ينام فيه ثلاثة من الجنود وقرقع الصفيح تحت اقدامها وتلوى وتكسر واستوى إلا ان اطارها مر بالقرب من الجنود الثلاثة الذين علقوا بالواح الصفيح التي أطبقت عليهم ضانين انها غارة جوية وعلا صراخهم وعويلهم.
في تلك اللحظه استيقظت وأنا اسمع ان هناك جلبة غير عادية كان موضعي قريب من الحانوت. وفجأه سمعت أحدا يصرخ فوقي ويد قوية تمتد نحوي وتسحبني « سيدي اخرج من الموضع ... سيدي اخرج من الموضع » فوثبت مسرعاً وأياه خارجا وسحبني بعيدا وانا انظر ذاهلا الى تلك الكارثة الرعناء تزحف نحو موضعي وتسحقه سحقا. و توضح لي الموقف بسرعة: سيارة «كراز» تسير الى الخلف دون سائق ! كيف حدث ذلك ؟ لا احد يعلم .
عويل وصراخ يملأ المكان كان الكل يصيح ويولول الناجين وغير الناجين الضباط والجنود

واكتاف مخلوعة وارجل مهروسة وصدور وروؤس مهشمة وكان عدد كبير من الجنود مشغولين بضحايا الخيمة الكبيرة.

كان بالامكان في تلك اللحظه ايقاظ وتحذير الجميع لأن عددا كبيرا من الجنود والضباط وضباط الصف قد خرجوا من مواضعهم وخيمهم إلا ان الرعب والهلع والمفاجأة التي اصابت الجميع جعلتهم يصرخون ويولولون عاجزين عن الأتيان بأية فكرة قد توقف السيارة التي داست الان الخيمة الصغيرة التي كان ينام فيها الحلاق لوحده وحين ابتعدت وهرع احد الجنود ليرى ما حدث للحلاق وحين أزاح الخيمة وجده سالما لا يزال يغط في النوم اذ توسطت الخيمه الصغيرة الاطارات عندما حيته «كراز».

شعرت بهول المسؤولية والواجب اذ يحتم عليّ أنا بالذات أن أوقف هذا الحيوان الهائج وفكرت ان يعترض طريقها «الشفل» وصرخت بالنائب الضابط... «الشفل» وكان على مقربة منه وهدر محرك الشفل ومشى بسرعة متوجها الى كراز وبدا لي ضئيلا ازاءها ولكنه كان يتحين ويتربص بها كالديك وعندما ضرب مؤخرتها احدث الارتطام صوتا مدويا إلا ان المواجهة يبدو لم تكن مستقيمة لخوف السائق فأزاحته من طريقها وكادت ان تقلبه واحسست كأنها تهزأ بي وتهينني وكانت في تلك اللحظة تتجه نحو محرك الذخيرة الذي كان يحوي خراطيش متنوعة للبنادق وكمية كبيرة من القنابل اليدوية وفكرت بأنها تتجه نحو نهايتها وتقود نفسها الى حتفها وتخيلت فرحتي ومتعتي بمرأى اشلاءها تتطاير مزقا في الهواء ، وأمرت الجنود بالابتعاد والانبطاح وديس الموضع وتدحرجت القنابل واحتك بعضها ببعض وتفجر قسم منها محدثه تمزقات كبيرة في اطارات الجهة الخلفية واليمنى إلا ان القنابل الصغيرة لم تستطع ان تصيب منها مقتلا فأخذت تسير مائلة تترنح واطاراتها تحترق وتتطاير ، وأمرت الجنود بأحضار المطافىء واخماد النار.

ووسط الهستريا التي اصابت الجميع ركض احد الضباط ببندقيته الرشاش واخذ يطلق النار على اطارات كراز ومزقها جميعها ثم وقف بمواجهتها وصوب النار على محركها وأخذت كراز تزأر وهي تتراجع بصعوبة وأضيفت لذلك الزئير اصوات الاطارات وهي تطرطق وتتمزق وتسربلت الارض بالماء والزيت الذي كان ينهمر من محركها إلا انها ظلت تمشي وتترنح مثل وحش مثخن بالجراح .

وأخيرا واتتني الفكرة التي كان علي ان افكر فيها من اللحظة الاولى لولا الهلع وفقدان

الصواب وهي ضرب الوحش في رأسه والدخول الى السيارة وادارة المفتاح واطفاءها وتيقنت بعد ذلك ان هذه الفكرة قد غابت عن بالي وبال الجميع لبساطتها وصحتها.

الا ان الابواب كانت مغلقة فلا بد من كسر زجاجها والتسلل الى داخلها واطفاءها فأمسكت بعمود كبير وركضت به نحو زجاج الباب واندفعت بكل قوتي وارتطم العمود بالزجاج إلا انه أرتد وطرحني ارضا وانتبهت ان التكتيك الذي مارسته في ضرب الزجاج كان خاطئا فلوحت بالعمود مرة ومرتين وهويت به واذا بالزجاج يتحطم ويتهشم بالكامل واحسست بأني فقأت عين التنين وسبقني احد الجنود متسللا الى داخلها ليطفئها.

وتوقفت «كراز» وكأنه وحش يرتج وينهدّ ناظرا الى بعين واحدة متحديا بعد ان اشبع نهمه في القتل والتخريب كان صوت سيارات الاسعاف قد سمع قبل ذلك وكانت الحركة غير عادية في ذلك الفجر المشؤوم وكانت فعالية «كراز» قد استغرقت اقل من ربع ساعة إلا انها مسحت عشرات من السنين الآدمية.

اسطوانه عنوانها "مسعود عمارتلي والعبقريه"

هنا حيث لا ساحة تغني ...لا شارع نطلق فيه حماماتنا ونسميه.. لا ميدان لنا.
في هذا اليوم وفي هذه الجلسه أحاول أ ن أعبث بالطين المعد لتمثال آخر... نبنيه حتى او أقتصر ذلك على قلوبنا... متواضعين في الدرب الى تمثالنا الكبير لنستمع "مسعود عمارتلي" .
إذاً فنحن أمام الغناء هذا الامر العجيب، الفرح والحزن الاول أمام ألأنة البكر للأنسان وهو ينظر حوله الى دوامه اسمها الطبيعه برعبها بوداعتها بشرها بخيرها...بعطائها بفنائها ، بأصواتها المنذره المتوعده تاره والهادئه المبشره تارة اخرى ، بدأ وهو يقلدها ويحذو حذو عصافيرها وهدير امطارها نعم أنه الغناء هذا الطينه الهائله... التي سيخوض فيها "مسعود" حتى أذنيه ولكن كأمهر سباح ملتقطاً في كل مرة ومن كل هذا عزاءً ودفئاً...ونفيساً من المحار واللآليء.
واذا كانت العبقرية هي ذروة الشيء حسب التعريف الشائع فأنه لم يكن مزاحاً يوم أرتحل "مسعود" من دار سيده المعافى... ناسجاً من ذلك الركب الاسود الباكي لوناً لعباءته وعقاله المغبر الغريب ومستنبطاً من مستنقع الزمن حين ترفرف حنجرته... وكأنها راية فسيحة في دار في ساحة يهتز الف رجل فيها من وقع الأنين... تلك النفائس الملطخه بالمصائر والوحول، ذهاباً إثر هذا المتسع.. متسع الأنين حسرات ناحله مدفونة ونساء بلا ضفائر بكاء وبيوت مهجوره وضعون سائرة... ولكن هل سيكون لنا متسع من خيال... لأن نعريه حتى النهاية...
ونرى ثدييه الصغيرين الضامرين...
ونرى أي مخلوق غريب وعالمي هذا الذي بيننا...
لانعرف يوم ولادته ولا يوم رحيله ولسنا مختصين، إنما نعرف ان "مسعود" كان "وصيفة"

لأحد الشيوخ وكان يغني في مناسبات تلك القرية، هرب بعدها الى مدينة "العمارة" بتشجيع من شقيقته... بالاحرى شقيقتها مرتدياً زي الرجال ليغني في المدينة ومقاهيها
مشتهراً...وأثيراً...ومطلوباً...ومسجلاً ومقتولاً برصاصتين في احدى مقاهي "علي الشرقي" وهو في ذروة المجد والشهره كما يقال.
وإذا أعدنا القول بأن العبقرية هي الشيءفي أقصى حدوده. فمن السهولة أن نرى «مسعود» يمتطي هذا الحصان الجامح وبكفائة روحية شذ أو قل أو أنعدم لها نظير... بعقاله الجديد عليه وعباءته راكباً تلك الآهه العجيبة الواحدة... منطلقاً مستجداً ومصعداً لطور «المحمداوي» الذي تقول عنه الاساطير بأنه «يجهض الحبلى»
فنراه أولا ثائراً على جنسه... ذلك ماأملته الموهبة وماطفح عنها من حرية، حرية الفنان وشجاعته... ماأملته الاندفاعات الداخلية والاحساس بخطأ أن يرضى بقسمته مرتحلاً الى جهة أخرى...ولكن مستمداً ومرتبطاً بالبيئة المشوهة بيئة الاقطاع والاحباط المستمر للعلاقات االانسانية...حيث يختلط الهجر والموت والحب.
فلنستمع «مسعود عمارتلي» ...
ليس هناك اكثر اتساعاً وامتداداً وتأثيراً على الغناء الشعبي ، الى يومنا هذا من عباءة هذا المطرب العجيب، ويشبه بذلك اتساع صوته وشموليته. لاشك انه قلّد وطوّر ، غنى منفرداً ومع منشدين في الهواء وعلى الاسطوانة. ان من يسمع «مسعود» لا يستطيع الفصل فيما آذا كان هذا الصوت لرجل أو لأمرأة قريب أو بعيد أنه صوت لمخلوق منفرد أنه الحد الفاصل.

أنها اسئله كثيره ولاشك تلك التي سيشاد على اساسها البنيان الذي نتمناه كيف انفرد مبتدئاً أغانيه بآهة واحدة ابتكاراً أم سبقه اليها احد..مانعرفه ان احداً لم يغني بهذه الطريقة...
هل كان يلحن لنفسه ام كان هناك ملحنون عرفوا مساحة صوته وارتجالاته... قدرته وعجزه ، قراره وجوابه، السياره التي سجلت له ووثقته.
ان اسئله كهذه لابد أن يجاب عليها خصوصاً ان تاريخ «مسعود» لا يبعد إلا بضع عشرات من السنين.
ولابد من مثابرين شجعان سيزيحون الستار ولاشك عن هذا التمثال المهيب.

يوم مشهود

لكل مدينةمن مدن بلادي بل لكل بقعة من بقاع الارض الواسعة أيام وذكريات مشتركة غير عادية، وسواء كانت هذه الايام مدعاة للحزن او البطولة او غيرها من المشاعر فانها ايام لايمكن نسيانها فكل المدن مثلا شهدت ايام الحروب والمجاعات والامراض والجفاف.. وتظل تلك الايام مثار الحديث على مرّ الزمن ومحفورة في الذاكرة تقلبها الاجيال أثرا وتراثا وألما وتاريخا.

ولكن لكل مدينة يوم خاص ، يوم مشهود ، مختلف عن كل ما يحدث في مدن اخرى ولا يشبهه أي يوم في أي مكان.

وقد تتحدث مدينة عن عرس هائل لابن سيد من ساداتها ، او تتحدث مدينة اخرى عن زيارة رجل مهم ، ربما اخرى تتحدث عن فيضانها او حريقها، فانا ساتحدث عن يوم مدينتي. ذلك اليوم الذي أراه مختلفا واثيرا وغريبا وغاليا لما ينطوي عليه من حزن وغصة.

مدينتي المتربعة بحياء على احدى ضفاف دجلة الحانية، بنخلاتها الباسقات وبيوتها البسيطة الوادعة كما تبدو على البعد.

كانت ضاجة وتزخر بسوقها القديم العامر المزدحم بمحلات الصاغة والقصابين ومحلات بيع الاقمشة، برائحتها برفوفها التي تعلو الى عنان السماء كما يقولون!

وإذ كانت مركزا تجاريا هاما لما يتميز به من موقعها ولمايحيط بهامن قرى لاحصر لها، كانت سفن الحمل البخارية رائحة غادية بتجار عِرْق السوس والحنطة والشعير.

ورغم ان هذه المدينة كريمة ومليئة بامور كثيرة، لكنها في نفس الوقت كانت شحيحة وتخلو من امور ضرورية اخرى، حيث كان فيها ، كرديٌ ، واحد ومجنون واحد . وكان الذي يثير الخوف واللايقين إن هؤلاء، الكردي والمجنون، كانا غير كاملي الثبات، فالكردي يغيب اياماً عن المدينة وعندما يسأل عن سبب غيابه يجيب بانه يسافر الى صديق له في ناحية اخرى قريبة. وصديقه هذا كردي ويقصده لا لسبب سوى ليتحدث اليه باللغة الكردية، لغة اهله

واجداده، وهذا لينفس عن صدره ويطيب خاطره ويريح قلبه اياما ويعود، وهكذا لايدفعه للسفر غير الضمأ للتحدث والثرثرة، فليس هناك من يتحدث اليه بلغته.
والمجنون إنماكان على وجه الدقة نصف مجنون كما يقال. إذ لم يكن هائما على وجهه ممزق الثياب ، كما هو معروف عن المجانين عموما، بل كان رجلا متزوجاً ومعيلاً لأبنائه.
كان يتخذ له مكانا في سوق المدينة يبيع الحلوى للنساء المتسوقات والصبيان، الذين كانوا في نفس الوقت سبب علته ومصدر إزعاجه وعراكه وهياجه عندما يسرقون أو يبعثرون بضاعته..وسيكون هو بطل ذلك اليوم ، اليوم الذي هدد بالانتحار، يوم المدينة المشهود.

في ذلك اليوم لم يكن هناك ثمة إنسجام في المشهد كله. كان النهر عريضا ملفتا للنظر..
وكانت صفحة الماء بيضاء ساطعة في ذلك العصر الهادئ والشمس المائلة نحواليمين.
كانت بعض الزوارق وسفن الحمل الصغيرة العتيقة راسية عند الشاطئ، تصطفق المويجات الصغيرة على جنباتها وهي ترتج لابثة في مكانها بهدوء غريب. وبين الحين والآخرتمَر على البعد في جانب الشاطئ الاخر شاحنة أو سيارة خشبية.
كان هذا المشهد يرتج وينهار على الجانب الآخر من الشاطئ بالهياج الذي لم يشهد له الشاطئ مثيلا من قبل.. حيث تجمع اهل الناحية كلهم تقريبا نساء ورجال وشبانا يحثون الخطى ويبعدون الاطفال بقسوة ، حتى يضربوهم على قفاهم حين يعيقون سيرهم ، تتقدمهم إمرأة فوق الثلاثين من عمرها تجر عبائتها حافية ، وصبيين حفاة كذلك وثيابهم مهدولة.
كانت المرأة تصرخ تارة واخرى تلطم رأسها..بينما يعّكر صفو الماء رجل يسبح وسط النهر منهمكا يضرب بيديه صفحة الماء البراقة، يهز رأسه بخفة وعنف ولايلتفت لأي شئ عدا صوت تلك المرأة وهي تلهث مضطربة.
ـ عطوان.. ياعطوان، لمن يبقى هؤلاء؟ صرخت وهي تشير الي الصبيين ، واردفت :
ـ أولادك هؤلاء....لمن..؟
ـ أبناء الناحية قتلوني.
هكذا أجاب الرجل الذي كان يعكر صفو الماء وحيدا .. متوقفا وسط النهر كأنه الشيطان نفسه.

كان عدد غير قليل من ذلك الجمهور الهادر غير مصدق بتصميم عطوان وغير مقتنع بنية

ذلك المخلوق. إنما نظر للامر بغير جدية ، وكان بكاء المرأة وهي تهيب بكل من تراه بأن يلحقوا به فهي تعرفه وتعرف سلوكه واصطكاك فكيه عندما يعزم على أمر ينفذه.
وعدا بكاء المرأة فإن الذي جعل الناس يتراكضون نحو الشاطئ ، هو الخوف اللاشعوري والذي شمل الجميع على واحد من ثوابتهم ، إذ لايمكن لمدينة ان تتحرك وتعيش دون ان يكون لها مجنون ، وان تخلو احيانا فإنهم لابد صانعوه .
وكان هذا العدد الغير قليل اضطرب وتجمهر ظانا إنها إحدى صولات عطوان الجنونية ، وصاح احدهم بالمرأة :
- أجننت أنت ايضا ، كيف سيغرق هذا وهو يجيد السباحة كما لا يجيدها ابليس؟ وصاح آخر
- إهدأي ياإمرأة ، سيرجع لك بعد قليل... سيرجع كالكلب المبلول . والتفت الى جهة النهر صارخا بعطوان بامتعاض ونفاذ صبر تامين:
- اخرج ايها الارعن الاتستحي؟ اخرج ، لقد افزعت صغارك ، ام تريد ان تضحك الناس عليك؟
تلعثم عطوان على البعد وكانه قد شرِق(غص) بالماء وصرخ بالرجل ، وقد ردد النهر صدى صوته البعيد .....
- اسكت انت... انت بالذات اسكت ، عليك اللعنة..انما انا هارب منك ومن امثالك ومن اولادك، انت واولادك ، هم الذين عذبوني واهانوني وسرقوني.
سعل سعالا مشوشاً ، الان دفعة من الحيوية والنشاط دبت به فاندفع منسابا بقوة كالضفدع، حين شاهد ثلاثة من الشبان يرمون انفسهم في النهر بعد ان اهيب بهم ان يلحقوا به.
فواصل السباحة بهمة وسرعة بينما تارجحت امامه، اسباب رحلته الطويلة القاتمة.. مبللة مشوشة .
وعلا صراخه بين الحين والاخر فقد كان واضحا كل الوضوح..جوابا مختصرا لكل مايحمله من افكار.
كان جادا .. هذا ماهو متاكد منه الا انه غير واثق من نهاية جولته ، اهي آثام يريد ان يغسلها تثقل عليه حياته..او فكرة جديدة طرأت عليه.

ربما تكون فكرة الانتحار حقيقية ومجنونة بشكل ما.. او انه لا يستطيع المواجهة وليست له

القدرة على ذلك..هكذا خلق. ولكن اين هو وهل يستطيع القول بانه امسكها .
كانت اسبابه تضطرب مع حركات يديه السريعة وتتلاحق.
ولكن هل حقا انه يسبح من اجل نهايته والوصول اليها وهل قالها بوضوح « سانتحر» .. مثلا ، عندما رمى نفسه بالنهر! سوى انه كان يصرخ ويلوح بيديه ويرفعها الى الاعلى ويدفعها نحو المدينة كما لو كان يرمي حياته التي تجمعت ويدفعها ليرتمي هو الى جهةٍ اخرى لم تكن محددة حتى تلك اللحظة.
ربما يرجع عدم الوضوح هذا الى انه متأكد من كونه سباحا ماهرا.. فلماذا النهر.. وكيف سيغرق؟.
ولم هذا الرعب والضجيج الذي حل بالمدينة.. هل حقا يحرصون عليه؟. لماذا يلاحقونه؟ وهو الذي كانت تلاحقه بالامس همساتهم وصيحات اطفالهم ..عطوان المجنون..عطوان المجنون.. عطوان المجنون .غاصت هذه الكلمات بعيدا ربما في القلب او في مكان آخر انما داسته تماما.
حاول الغوص وظل بضع لحظات في الاعماق الا انه اندفع للاعلى على غير ارادة منه شاهقا منتفض الراس ، بعدها ارخى اطرافه منسابا في الماء الذي كان يجري بمهابة وهدوء..
لماذا يلاحقونه وكل ماقاله انه هارب من اهل المدينة ، هارب من اطفالها.لاشك انها زوجته التي تفهمه تماما هي التي استنفرتهم بهذه الصورة بعد ان حدست برعب وانخذال ماهو مصمم عليه ولم يكن هذا من الكلمات القليلة التي تلفظ بها بل من حركة رأسه الملتوية ومن يديه اللتين ارتفعتا الى الاعلى باهتزاز.
التفت مرة اخرى بسرعة.. لماذا يلاحقه هؤلاء الاوغاد؟ إذ لم يكن غريبا ان رمى نفسه في هذا النهر وبجنون اكثر، وليست هي المرة الاولى التي يلجأ فيها الى النهر ليطفئ الغضب الذي يعصف به من اعتداءات المدينة ومن سرقة الاطفال للحلوى التي كان يصنعها ويبيعها.. رغم انه احس وباعماقه وبصورة لاشعورية بغموض هذه المرة واعترته لوعة من فكرة ان هذا آخر غضب يلقيه عند هذا القريب الغريب الذي لايمكن ان يفهم. ولكن هل يفهم هؤلاء الانذال.. إذاً لماذا هذه المرة.. هذه المرة ساكون لعينا وعنيدا بالشكل الذي يدعو للاحترام والرعب.....

-عطوان....ياعطوان
صرخت المرأة بنواح وشقاء

- ابناءك هؤلاء... عطوان.. اخرج ونرحل الى ناحية اخرى.

« أية ناحية أيتها الغبية.. عطوان هو بجنونه والناس هم الناس» .هكذا همس لنفسه وهو منهمك.

ـ عطوان.. عطوان ، هل جننت؟

عادت المرأة تصيح ، كانت عبائتها قد إستقرت مهدولة على كتفيها.

توقف عطوان صارخا

- وهل كان لعطوان عقل حتى يجن !؟

كان شاباً أسمر يركض بسرعة وارتباك ، جاء متقدما الحشد واستمر يركض محاذيا النهر حتى وصل مقابل المكان الذي طاله عطوان وهو يصيح لاهثا : ارجعوا ستقتلوه انتم ، ارجعوا سيعود عطوان .

- عطوان.. أنا صاحبك عزيز ، هل ضيعتني ..أخاك أرسل لك وصية وسياتي عما قريب.. ماذا سنقول له .. وماذا ستقول انت ؟

أحس عطوان بعطب خفيف بذراعيه « هل يريد أن يخذلني عزيز هذا.. ومن اين له ان يفهم.. »

بهذا همس لنفسه وتمنى في تلك اللحظة ان يجلسا سوية ويحدثه لكنه تأكد من استحالة هذه الامنية ، إلتفت وراءه ورأى الشبان الثلاثة مازالوا يجدون في اثره. إستعاد قوته وعاود السباحة بقوة وعنف.

- عطوان.. أين الرجولة واين ايامك. صاح الرجل اللاهث مبتعدا عن الحشد .

انتابت عطوان غصة أليمة في بلعومه واغرورقت عيناه وشعر بحاجة لان يشرب قليلا من الماء ، أرخى ذراعيه وإنساب على صفحة الماء متذكرا يوم ، إنزلق من مجده القديم من عقاله وعبائته عندما كان يملك حصة في معمل صغير للطابوق ، وقراره المفاجئ لبيعها والرحيل الى الناحية.

غطس رأسه بضع ثواني وأحس بثقل وجنتيه الى ألاعلى ثم إنتفض فجأة وبعنف . « لقد استثقلت هذه المهنة » هذا ماقاله لزوجته التي بكت كثيراً ، لم يكن بكائها من قراره المفاجئ ذاك بل من أمرآخر أخافها وكدرها وقبض نفسها.

فقد ألَمت بعطوان قبل ذلك حمى ألزمته الفراش شهراً كاملاً وعندما شفي كان قد تغير كثيراً

، حيث كان ساهماً على الدوام ويحدث نفسه ، وقد غاب مرة عن البيت يومان كاملان دون ان يخبرها وعندما عاد وسألته معاتبةً ، إمتعض وخرج دون ان يجيب. قيل بعدها ان عطوان أصيب بلوثة.
إنتبه الى نفسه متسائلابصمت « هل هذا آخر يوم ، وهل هذه آخر القرارات وآخر لحظة ، وآخرحيرة تطالها حياته الضاخبة ؟ »

حرك يديه بهدوء وإندفع الى أمام بإستقرار محررا أحشاءه إلا أنه أحس بدبيب جسم أملس بين فخذيه مما جعل بدنه يقشعر منتفضا بعنف.
- أي إبن الكلب .. ساريك من المجنون..
إلا ان الطفل دخل راكضاً الى مقهى قريب محتميا بابيه الذي كان جالسا هناك.
يومها وقف عطوان في باب المقهى منتصبا لاهثا وجسمه يرتعد غضباً .
- لماذا لاتربي هذا النغل الذي يقال انه إبنك ؟.. أنا المجنون أم أنت وكل عشيرتك.. ولو لم تكن هكذا لما قضيت كل ايامك مطروحاً هنا كالكلب.

تنهد لحظة وانقلب على ظهره محركاً رجليه حركة خفيفة كما لو كان يريد ان ينام ، واغمض عينيه.
وضعه ثلاثة بينهم وأخذوا يركلونه وقد قرروا قتله لولا تدخل بعض الجالسين معللين كلامه بجنونه. واختفى أثر هذه الحادثة في بيته أياما طويلة وفكر ان يترك هذه المهنة اللعينة والتي تعلمها من كثرة اسفاره بعدما ظل عاطلا اثر رحيلهم الى الناحية ، كان يحرص كل الحرص على ان تكون حلاوته طيبة المذاق ونظيفة.. يحبها زبائنه ويحدث ان يسرق أحد الاولاد شئ منها ويهرب ، فيلاحقه عطوان تاركا بضاعته نهبا للاخرين .
لم تكن لقسوة بعضهم حدود فحين خرج من عزلته ، فإن أفواه جديدة قد أضيفت وصفات ونعوت لاحصر لها قد اعدت وحفظت لملاقاته ولم يستطع هو ان يعتادها ، فيعود مرة أخرى لشقائه وصراخه وتعود شتائمه.

كانت هذه الخواطر التي مرت قد سحبته الى هاوية سحيقة من الخذلان والخجل والاشمئزاز مما زاده قوة وتصميم على مواصلة مسيرته رغم صراخ عزيز المستمر بينما هو يبتعد شيئا فشيئاً

عن الشاطئ الصاخب .
وأجلست المرأة الى جانب قريب باكية وقلقة وعاجزة ، يرافقنها بعض من النسوة الثرثارات اللاتي كن بالامس يحسدنها بسخرية وقهقهة حين كان عطوان ياكل معها وقت الغداء يوم كان الحرص يسود والاشتهاء ، يوم كانت عالمه الوحيد والاثير .
كان بناءاً عالياً يطل على النهر هو الذي منع ذلك الجمهور الكبير من مواصلة السير على الشاطئ ومتابعة عطوان رغم ان عددا كبيرا منه قد تثاقل في سيره قبل ذلك ، معللا من انه لابد من عودة عطوان وبانه سيتعب بعد حين ويخرج ، إذ لايمكنه أن يستعين بأحد ليمسكه من شعر رأسه ويغرقه ، ولايمكنه كذلك بان يصدر أمراً الى عزرائيل ، فعزرائيل لا يتلقى أمرا من أحد ، ولابد ان يكون مشغول في هذه الساعة . هكذا تراجع الجمهور مثرثرا غير ان عددا من الصبية والاولاد والاطفال كانوا قد التفوا حول ذلك البناء بخفة متوقفين على الشاطئ يرقبون عطوان ويتوسلونه على البعد وهو لايسمع :
- عمي عطوان .. أخرج ياعم
- أخرج عماه .. من يصنع لنا الحلاوة من بعدك
- اخرج بالله عليك .. كفى ياعم
كان احدهم قد جلس القرفصاء مرتجفا مغرورق العينين . وظلوا هكذا يرقبونه طويلا وهو يبتعد .
التفت عطوان واحس بشئ من الراحة رغم الاجهاد الذي أخذ منه مأخذا ، بل أحس بشئ يشبه الانتصار إذ لم يستطع الشبان الثلاثة من مواصلة السباحة فخرجوابعد ساعة لاهثين مجهدين شاتمين وجلسوا عند الجرف مطرقين رؤوسهم واضعين سواعدهم على ركبهم .
وكان وهو يشيح بوجهه عن كل ماحوله وهو يبتعد اكثر فاكثر وكانت حواسه تواصل عملها بصورة طبيعية نوعا ما ، رغم انه أحس بدوار خفيف في رأسه وكأنه الذهول ربما سببته صفحة الماء المنبسط أمامه.
كان يود أن يرى الشاطئ أمرا فظيعا يليق بتلك اللحظة وهو يقلب وجهه وقد أحس بتعب غير قليل يسري بأطرافه وإنتابه شعور بالوحشة من ذلك الهدوء الذي أحاط به متذكرا جلسة له على الشاطئ في امسية بعيدة ، بدا له النهر يومها غريبا .. مخيفا .. مهيباً لامباليا ، كان جالساً على صخرة صغيرة والى جانب قريب منه سفينة حمل صغيرة صنعت كلها من الحديد متروكة غارقة في وحل الشاطئ لايظهر منها سوى المقدمة، متكأة على

جنبها تضربها الامواج برتابة وعناد .
أخذته حينها الافكار بعيدا وهو ينظر الى سطح الماء الداكن المبهم.. كيف يمكن لانسان ان يموت غريقاً ، كيف يتسنى للنهر أن يفعل ذلك .. ولماذا لايتركه يطفو إلا بعد أن يتاكد من موته .. اللعنة.. وارتعد من فكرة أن يطفو غريقاً هناك عند تلك الجزرة المتشابكة بين الافاعي والسلاحف والحيوانات المختلفة .. يالها من غربة كريهة..
هكذا حدث نفسه في ذلك المساء الموحش البعيد.
أحس لاول مرة بثقل جسمه وشعر بأنه يفقد مهارته وخفته وان صوتا من اعماق النهر يناديه ، واجتاحته فجأة فكرة الموت ووحشته وارعبته ، واختلطت احشائه برأسه « هل حقا إن ساعته قد دنت ؟ لابد ان الله سيجد له اسبابا كثيرة ليعفو عنه ، فإنه لم يؤذي أحداً في حياته ولا حتى نملة ، أيكون هذا سببا كافياً للغفران .. لم يكن يصلي كما هو مطلوب انما كانت صلاته متقطعة واحياناً ينساها اياماً عديدة .. فهل لابد من العذاب ... طريق البرزخ ... وأشجار الزقوم » تذكر أمواته وتذكر أمهُ بالذات ، قد يراها هناك وهو في الطريق بينما يسوقه الزبانية نحو الجحيم .. أو يلمحها من احدى كواة جهنم على البعد وهي تنسل شعرها الاحمر الناعم تحت شجرة من أشجار الله الظليلة . ام ان كل هذا هراء .. هراء « إن الله خالق الكون ، خالق السماوات والارض خالق الشمس وهادي النجوم البعيدة وباعث نورها لابد ان الله هذا اكبر واعظم مما يشاع عنه ويقال ».
هكذا حدث نفسه مسدلا الستار عن تلك الافكار المزعجة التي لاداعي لها.. والتي فات أوانها ، كانت امنيته بحدوث شئ غير طبيعي وغريب لازالت قائمه في راسه وكان يود لدرجة اليقين بحدوث شئ ..ناراً ستلتهم المدينة وتتاح له رؤية ذلك او يرى احد صغيريه مذبوحا على الشاطئ .
وقد لمح في تلك اللحظة كلبا هزيلا يجري وتمنى ان يعوي ذلك الكلب وتمتم بتعب وهز الماء بيديه « الا تعوي ايها الكلب القذر ... انك اشرف منهم جميعا ». وازدادت امنيته لسماع عواء الكلب ، الا ان ذلك لم يحدث ، إذ لم يزل الكلب يهرول على الشاطئ غير مبال .
لم يكن هو بحاجة لكل تلك الامنيات ليصعد لحظته بل كان يزداد تصميما كلما انهار شئ من قواه تذكَر شخصاً رمى بنفسه ليلا في ذلك النهر لابد في تلك اللحظة قد علت عينيه غشاوة سوداء قاتمة ، أو ربما كانت السماء أثرها تمطر بشدة او ان عاصفة من غبار اسود كانت هناك . كل شئ من هذا لم يحدث الآن ، حتى الكلب ظن عليه .

بل كانت مجموعة من طيور الماء تعلو وتهبط بمرح وكانت الشمس واضحة واليفة ، وكان مكاناً لبيع اعمدة «القوغ» تلك التي تستعمل لبناء البيوت وكان المكان يبدو جميلا ومدهشاً حيث الاعمدة مرصوفة ملساء وبيضاء ، وبضع من الحصران الذهبية الكبيرة تلتمع مبعثرة على الشاطئ بصورة تخطف البصر، وكان هناك زوجان من الاعمدة الطويلة متعانقة نحو الاعلى .

لذا فانه اتخذ قراراً أن لايلتفت ، كانت قواه قد إنهارت تماماً وأخذ يتنفس بصعوبة ويتقدم ببطء في الماء الذي ارتفع موجه وصار هائلا مضطرباً ، وقد مضى من الوقت ثلاث ساعات وهو يسبح وكانت محاولاته للاسترخاء والراحة غير مجدية ، بل كانت وكانها تحدث إضطراباً في مخططه.. وكانت قوى خفية تحاول سحبه الى الاسفل لكنه مازال يقاوم .

وعندما وصل الى منعطف النهر أحس كأن شيئاً قد اقتلع من رئتيه او إن صمام تنفسه قد اغلق تماما في تلك اللحظة لمح وبما يشبه السراب ، رجلا يسير على الشاطئ ويحمل خرجاً على كتفه متجها صوب المدينة ، إستجمع عطوان ماتبقى من قواه وصاح بالرجل بصعوبة كبيرة وكلمات متقطعة وأنفاس لاهثة مختلطة :

- ايه.. أيها الرجل.. ماذا تسمى هذه المنطقة ؟

انتبه الرجل وتوقف عن السير مستغرباً

- إنها « العالية » .. أخرج يارجل ، فانت متعب .

- لقد وصلت !

هتف عطوان وغط فجأة .. وخيل للرجل الذي إزداد فضولا ودهشة إن اخطبوطاً سحب عطوان ثم فكر ، لابد أنه يبحث عن شئ ما ، وعندما مرت بضع دقائق تمتم الرجل :

- ماأطول نفسك ياهذا لابد ان لك رئتي شيطان..

كان صوتا هادرا قد اشتد على الجانب الآخر من الشاطئ إذ مرت شاحنة متجهة نحو الشمال وكان سائقها يمرر يده اليسرى على رأسه بهدوء ولامبالاة . وعندما اختفى صوت الشاحنة سمع عواء كلب آت من بعيد ، ولبث الرجل واقفا تتنازعه الحيرة واليأس ونفاذ الصبر ، وبعد ساعة كاملة وبينما كانت الشمس تزداد شحوبا واصل سيره نحو المدينة هازاً رأسه ملتفتا بين الحين والآخر متمتما « اللعنة... اللعنة.. تف».

وعندما وصل المدينة رأى عدد من الرجال وقليل من النسوة مازالوا متجمهرين عند الشاطئ

، حينها خيم الصمت على الجميع بينما هو يحدثهم بما رأى ، إلا انه لم ياتي على ذكر الشاحنة وسائقها الذي كان يمرر يده على راسه ، ولا عواءالكلب .

رسائل للكاتب .. لم تصله

اعتذار ... متأخر جداً

هل يعني شيئا، اليوم، طباعة كتابْ ، وقد صار طبع كتاب بالنسبة للبعض ، كشراء قميص او ربطة عنق، بل ان البعض يكتفي بالتوقيع على مسودة الكتاب المجهز قبل تسليمه لدار الطبع، التي لم يعد يعنيها ماهيّة الكتاب بقدر مايعنيها شهرة صاحبه او ماسيدفعه لهم... خاصة في زمننا هذا، زمن التردي والانانية وتبرير الخيانة .

ولكن هاجس الكاتب الحقيقي ، هل يعنيه ان تُقرأ كلماته ، او يسمع تعليقا او نقدا لما كتب ؟، هل يسعى الرسام ان يرى الاخرون عمله، هل يعني المغني ان يسمعه العشرات، هل يلتمس الموجوع ان نسمع صرخته؟.

كما هو مفرح ومهم بالنسبة للرسام ان يرى لوحته تتحول الى لوحات وموضوعه الى مواضيع بعيون المشاهدين ، كل حسب ثقافته التشكيلية ، كما هو مفرح للمغني وهو يرى ان جموعا تردد اغانيه.

فالكاتب او الشاعر بالذات يهمه ثمة اذانا محبة تسمع قصائده وعيونا تقرأ كلماته، والكتابة احيانا هي صرخة الشاعر او الكاتب، والصرخة للموجوع هي وسيلة لدفاعه عن نفسه وسيلة تفرضها غريزة حب البقاء، صرخة يريد بها ان تصل لقلوب ملتاعة تمده بالامل والحياة.

ولكن هل تعني الصرخة شيئا في صحراء ؟ تردد صداها رمال تذروها الريح وتبعثرها، إذن كم هو موُجع ان تكون بين جموع تحسب ان بينهم اصدقاء، وتصرخ ولا تجد التفاتة او اي صدى لتلك الصرخة.

كم هو موحش، ان لا يصل صوتك لمن تريد، الا بعد ان وصل (النصل الاعماق).

مع ذلك وصلتنا نداءات الشاعر ، وصلتنا رسائلا وبعض من قصائده وقصصه .

«اعينوني ياأهل الكهف

انه طرق يوميٌ لاينقطع »

ولكننا غفلنا عن قراءة مابين السطور . كان الشاعر طه الطاهر زاهدا بكل شئ ، زاهدا ولكنه ليس بخيلا على اصدقاءه مكتفيا بهم يسمعون قصائده ويعلقون عليها.. لكننا تأملنا بأكثر لعلنا ننشرها لتكن في متناول الجميع ، وهو الذي كان لابد لإسمه ان يكون ذا شأن بين الشعراء والكتاب .

كان شاعرا بسلوكه بحبه للناس ، بتواضعه ، بكبرياءه ، بعطفه ومنحه كل الحب لمن يحتاج ، الحب الذي لم يحظى به ، فشعر بالاذى والخيبة وساحته تقفر برحيل المحبين اولهم رحيل الذاكرة الثرّة التي تغذى من ينبوعها الغزير كل مراحل عمره ، رحيل منبع الحب والحنان والدة الشاعر، التي كانت له اما وابا واختا وصديقة.. وراوية مبدعة تهدهده بقصصها واشعارها الشيقة.

ومن ثم رحيل اخوته..الواحد تلو الآخر، ورحيل اصدقائه واحبته سواء في غربتهم او في اقبية السجون التي تكاثرت انشطاريا في العقود الاخيرة. رحيل جسور وشوارع العراق ، اختفاء الامل من العيون وانتعاشة اليأس والخوف بالقلوب..

رأى العراق الذي احبه حد الجنون ورفض ان تطأ قدماه غير تراب العراق ، رأى العراق.. رمادا، والناس ماعادت كما السابق.

«اواه لابد ان اكتب لكم .. وكيف ؟
أنا المتسول دائما ....
اكتب لكم
عنا ، وعنا جميعا .. عن العراق
وحصرا عندما يكون الحديث عن العراق
عراق النخيل والبردي
عراق المياه والانهر
عراق المدينة الآسنة
بقوانينها المتواضعة
بمثقفيها بشعرائها »